

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الشباب المسلم والتحديات المعاصرة

التحرير

ذكر ما ورد عن علماء المالكية المغاربة في التمسك بالسنة ونبذ البدعة

أحمد عيمر

نصيحة الطرطوشي إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين

إبراهيم بدري

السعر: 100 دج رقم الإيداع: 2006.3623 ISSN : 1112.6825

السنة الثالثة . العدد الخامس عشر . رجب / شعبان 1430 هـ الموافق لـ جويلية / أوت 2009 م



مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

المدير

توفيق عمروني

رئيس التحرير

عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:

عمر الحاج مسعود

عثمان عيسي

نجيب جلواح

التصميم والإخراج الفني

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

أيُّها القرَّاء الكرام

نرحِّب بكلِّ مقالٍ علميٍّ مفيد

ونسعَد بكلِّ نَقْدٍ هادفٍ سديدٍ.

فمجلة **«الإصلاح»**

وسيلة لنشر العلم النَّافع

العنوان:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021)

المراسلات:

ص ب 640 ـ 16008 ـ الجزائر

darelfadhila@maktoob.com

التوزيع:

جوال: 08 53 62 (0661)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [سورة آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾ [سورة النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سورة الأحزاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

تجدون في هذا العدد...

الشباب المسلم والتحديات المعاصرة

التحرير

إنَّ مرحلة الشَّباب هي الفترة الذَّهبيَّة من عمر الإنسان، وهي الَّتي ترسم ملامح مستقبل المرء وتحدِّده، لاتِّسام الشَّباب فيها بالفورة والحماسة والقوَّة والنَّشاط، والشُّعور بالذَّات، والاعتداد بالرَّأي، ورقة المشاعر، ورهف الأحاسيس، والاستعداد للتَّضحية في سبيل تثبيت المعتقدات وتحقيق المبادئ والأفكار الَّتي يحملها.

فللشَّباب في هذه المرحلة سلوكيَّات ترتبط أساسًا بطريقة تصوُّرهم للأمور، ونظرتهم إلى ما يدور حولهم، ونمط تفكيرهم في مختلف القضايا، فلهم مقاييسهم ومعاييرهم الخاصَّة الَّتي يزنون بها الأشياء، والَّتي كثيرًا ما تكون عبارة عن ترجمة لِما يؤمنون به في هذه المرحلة بالذَّات ـ بغضِّ النَّظر عن موافقتها للحقِّ وعدمه ـ، والَّتي تكون بدورها أثرًا ونتيجةً للمناخ العامِّ، والتَّوجُّه السَّائد.

ولهذا حرص الإسلام كلَّ الحرص على غرس مبدأ الولاء للدِّين الحنيف كعقيدة في المؤمنين، وذلك حتَّى يبقى الإسلام هو مدار حياة المسلم، يعيش ويحيا له، حتَّى يلقى ربَّه.

إنَّ الشَّباب هم طاقة الأمَّة وقوَّتها، وعمادها ومصدر عزَّتها، قد جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أسباب بلوغ المعالي والقمم ـ لا تشذُّ عن ذلك أمَّة من الأمم ـ، ومن أكبر مقوِّمات بناء مجد الأمَّة، وصناعة تاريخها، فشباب اليوم هم رجال الغد، «وهم الأصل الَّذي يبنى عليه مستقبل الأمَّة، ولذلك جاءت النُّصوص الشَّرعيَّة بالحثِّ على حسن رعايتهم وتوجيههم إلى ما فيه الخير والصَّلاح، فإذا صلح الشَّباب وهم أصل الأمَّة الَّذي يبنى عليه مستقبلها ـ بعد توفيق الله سبحانه، وكان صلاحه مبنيًّا على دعائم قويَّة من الدِّين والأخلاق ـ ، فسيكون للأمَّة مستقبل زاهر»[1].

إنَّ الاهتمام بالشَّباب والعناية بهم أمارة خير في الأمَّة المسلمة، ودليل فلاح فيها؛ لأنَّ صلاحهم يعدُّ من مسالك صلاح الأمَّة في حاضرها ومستقبلها، فمنهم يكون العامل والبنَّاء، والمهندس والطَّبيب، والمعلِّم والمربِّي، والصَّانع والحرفي، والكاتب والإعلامي، وطالب العلم والعالم الرَّبَّاني، وغيرهم من صنوف الشَّباب العامل النَّافع لبلده وأمَّته، لا الشَّباب العاطل

(1) «من مشكلات الشَّباب» لابن العثيمين (ص4).

القابع عن التَّقدُّم والرُّقيِّ، المتنكِّر لأصالته وهويَّته.

هذا؛ وقد عني الإسلام أيّما عناية بهذه المرحلة الحسَّاسة، وأولاها اهتمامًا بالغًا، وذلك حتَّى تستغلَّ هذه الفترة الاستغلال الأكمل، ويستفاد منها الاستفادة المثلى، في تحمُّل الأعباء والتَّكاليف، والقيام بالواجبات والمسؤوليَّات على أحسن وجه.

إنَّ عمليَّة نقل الشَّباب من مزالق الغواية إلى مرابض الهداية تقتضي **التَّدرُّج في سلَّم المعالي، وفق أصول وقواعد تُضبَطُ فيها المنطلقات، والغايات،** حتَّى لا يتيهَ الشَّبابُ في دوَّامة من صياغات للعقليَّة المسلمة تتجاذبها آراء عدَّة، ونظريَّات إدَّة، بعيدة كلَّ البعد عمَّا أراده الله عَزَّوَجَلَّ من الغرس الَّذي يغرسه في هذا الدِّين الإسلاميِّ الحنيف.

عن أبي عِنَبَةَ الخَوْلاَنِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لاَ يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ**»[2].

ولا شكَّ أنَّ قيمة الغرس بقيمة ما يُستعمل فيه وله، فإذا استُعمل في الطَّاعة المرجوَّة كان نِعمَ الغرس للأمَّة، يثمر سلوكًا وأخلاقًا إيجابيَّة فعَّالة يظهر أثرها الطَّيِّب في المجتمعات المسلمة، ولو تباعدت أقطارها، واختلفت ألسنتها.

فهذه هي الصِّياغة الَّتي نبغي، والصِّبغة الَّتي نريد، صياغة تغرس معنى العبوديَّة الحقَّة لله عَزَّوَجَلَّ في نفوس الشَّباب المسلم، وتزرع مفهوم إفراد النَّبيِّ ﷺ بالاتِّباع ـ دون من سواه ـ، والعمل بمنهج الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض، بأسمى معانيه، وأعلى ما فيه، من إقامة التَّوحيد الَّذي هو حقُّ الله على العبيد، والعمل بشرع الله ظاهرًا وباطنًا، والاهتداء بهدي النَّبيِّ المصطفى ﷺ، كلُّ ذلك في إطار وسياج فهم سلف الأمَّة، رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد سجَّل التَّاريخُ الإسلاميُّ الحافلُ بالإنجازات، لمسةَ تقدير وعرفان لثلَّة من الشَّباب المؤمن، على مرِّ الزَّمان، آثروا الأخذ بأسباب التَّمكين، من الإيمان بالله جل وعلا، والاهتمام بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح، والحرص على معالي الأمور، وعدم الرُّكون إلى الدَّعَة والفتور، أو الاشتغال بسفاسف الأمور، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾**﴾ [الأنبياء]، وقال عن أصحاب الكهف: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾**﴾ [الكهف]، كلُّ ذلك في إيمان ثابت، ويقين راسخ، ونفس مشبعة بالاعتزاز بالدِّين.

إنَّ سنن الله عَزَّوَجَلَّ في الكون غلاَّبة، ومنها سنَّة التَّدافع بين الحقِّ والباطل، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾ [البقرة: 251] الآية، فلا بدَّ من تحدِّيات وعقبات في الطَّريق، تعوق السَّائرين فيها، وتعرقل سيرهم، فتصرفهم عن القيام

(2) **حديث حسن:** أحمد (17787) وابن ماجه (08).

بالدَّور الَّذي أُنيطَ بهم، أو تمنعهم من أداء المهمَّة الَّتي أُسندت إليهم، من عمارة الأرض بالإيمان والعمل الصَّالح، وذلك كلُّه ليحصل التَّمحيص بين الغَثِّ والسَّمين، ويتمحَّض الانتساب الصَّادق إلى الدِّين، من الادِّعاء الكاذب والـمَيْن.

فالثُّنائيَّة الموجودة في التَّدافع هي الَّتي تحفظ العالَم من الاختلال والاضطراب، وتعصمه من الأحديَّة المهَيْمِنة، بكلِّ صُوَرها وأشكالها المعاصرة، من كوكبة وعولمة بمختلف آليَاتها ومظاهرها السِّلبية، ومن سياسة القطب الواحد الَّذي يسعى إلى التَّحكُّم في زمام الأمور ـ اقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا ـ، حتَّى أضحى العالم في ظلِّ هذه العولمة قرية صغيرة خاضعة لقوَّة رأس المال، وفكرة الحريَّة الفرديَّة، المبنيَّة على البراجمتيَّه، والمنفعيَّة الذَّاتيَّة، هذه الحوامض الَّتي كادت تذيب القيم الإسلاميَّة، وتقلب الموازين والمعايير الشَّرعيَّة إلى مفاهيم جديدة وبديلة يراد تمريرها إلى الشَّباب المسلم وبأساليب ماكرة لإفساد فطرته، وسلب حريَّته المتمثِّلة في عبوديَّته لربِّه عَزَّوَجَلَّ، ومسخ شخصيَّته الإسلاميَّة الَّتي هي مكمن سؤدده وعزَّته ورفعته.

لقد بات مكشوفًا ومفضوحًا مختلف هذه الطُّرق والوسائل المستعملة في محاولات تضليل الشَّباب المسلم، بدءًا بالخطابات الدَّاعية إلى التَّخلِّي عن مميِّزات الشَّخصيَّة الإسلاميَّة بكلِّ مقوِّماتها، تحت شعار التَّقارب بين الأديان والحضارات، وباسم التَّنوُّع الثَّقافي، والعلمنة الفكريَّة، الدَّاعية إلى إبعاد الخطاب الدِّيني، بصفته أحد مصادر الفتنة! والإرهاب عند (الآخر!)، حتَّى أضحت الدَّول الَّتي لا تنادي بهذا التَّنوُّع الثَّقافي أو لا ترفع شعاره أو لا تدمجه في مختلف إصلاحات منظومتها التَّربويَّة، تعدُّ مخلَّة بالمواثيق الدُّوليَّة المنصِّصة على ذلك، وتعتبر في نظر (الآخر ـ أيضًا ـ!) غير ملتزمة بها، ولا محترمة لها!!

ولهذا يُدعى الشَّباب المسلم في مناسبات كثيرة ومتنوِّعة إلى الجهر بهذا المبدأ المضلِّل، والإقرار به، دليلاً على اعتداله وبرهانًا على عدم شطط فكره وتطرُّفه! كما يُدعى إلى التَّرويج لقيم غربيَّة غريبة عن عادات الأمم المسلمة، كضربٍ مُحْدَثٍ من وسائل الغزو الثَّقافي التَّقليدي، وذلك عن طريق الإعلام تارة، بما يحويه من فضائيَّات ووسائل الاتِّصال أو عن طريق الشَّبكة المعلوماتيَّة، والَّتي كادت جميعها أن تتحكَّم في أذواق النَّاشئة ونمط معيشتهم، بتسريبها وتصديرها لكمٍّ هائل من المؤثِّرات السَّيِّئة على الدِّين والأخلاق.

هذه القنوات الَّتي صار مذهبها السَّائد اليوم: هو إشاعة المتعة بأقصى درجاتها، وطمس الفضيلة، والدِّعاية إلى الرَّذيلة، في محاولة لإغراق الشَّباب في مستنقع الشَّهوانيَّة البهيميَّة، تحت شعارات هي الأخرى باطلة وزائفة من مثل: عش حياتك، ولحظتَك، والإنسان لا يعيش مرَّتين!... وهكذا في سلسلة يطول ذرعها ووصفها.

ومن صور هذه التَّحدِّيات محاولة شغل

الشَّباب بالتُّفاهات، على شكل مسابقات تجرى عبر الهاتف في الفضائيَّات، والانسياق وراء الملذَّات، من أنواع المقتنيات، (من مركبات، وهواتف نقَّالة، وجوَّالات)، كلُّ ذلك - عندهم - وسيلة لتحقيق الذَّات، ممَّا يجعل الشَّباب بعيدًا عن الكمالات، يعالج القضايا الكبيرة للأمَّة بسطحيَّة ساذجة، وعقليَّة رائجة، لا يرجى منها - أبدًا - بلوغ المقامات العالية.

إنَّ هذا التَّحدِّي الصَّارخ الَّذي يواجه الشَّبابَ المسلم يحتِّم عليه معرفة ما يجب القيام به حياله، وكيفيَّة مواجهته، المواجهة الإيجابيَّة البَنَّاءَة؛ لأنَّ مدافعة هذا التَّحدِّي في فكر الشَّباب كثيرًا ما يكون مقرونًا عندهم بالشِّدَّة والعنف، واستعمال القوَّة في القول أو الفعل، وهذا من الحماسة الَّتي لا تنتج إلاَّ الخيبة والانتكاسة؛ لعدم انضباطها بالشَّرع الحنيف، وهذا واقع ومشاهد، لذا كانت منزلة الفتوَّة (الشَّباب) عند السَّلف، هي في **اتِّباع السُّنَّة**، كما قال سهل رحمه الله وغيره.

ذلك لأنَّ اتِّباع السُّنَّة والاعتصام بها أمان من الانزلاق في غياهب الجهالة والجهل، ومن الوقوع في دياجير الفتنة والقتل، وهذا ضرب آخر من التَّحدِّي يمسُّ منهج الشَّباب ومعتقدهم، والمتمثِّل في الفكر الإرهابي الخطير، المبني على التَّكفير والتَّفجير، والعاري من سنَّة النَّبيِّ ﷺ والكتاب المنير.

إنَّ قوَّةَ الشَّباب المسلم تكمن في ثباته على دينه وصلابته فيه، وتمسُّكه به، واستقامته على سنَّة نبيِّه ﷺ، مع الاشتغال الدَّائم بالعلم النَّافع، وعمارة الأوقات بالعمل الصَّالح، بنفس توَّاقة إلى العُلا، وطموحة إلى المعالي، ودون تراخٍ أو تقصير في إشاعة الأمل والرَّجاء في نفوس النَّاس، حتَّى تهتزَّ مشاعرهم إلى هذا الدِّين الحقِّ، وتربو معرفتهم به، وذلك بدعوتهم إليه على بيِّنة وعلم وهدى وبصيرة.

هذا الَّذي يلزم الشَّباب المسلم ويكفيه؛ لاستئناف حياةٍ كريمة أَبيَّة، من غير تنادٍ بالعرقيَّة، أو الإقليميَّة، أو الحزبيَّة أو سائر شعارات التَّبَعيَّة للأفكار الهدَّامة الوضيعة والوضعيَّة.

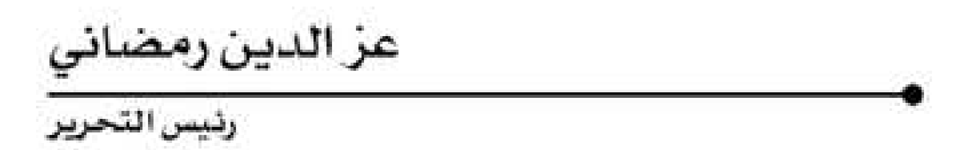
وصلَّى الله، وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.





البيان في أخطاء الاستشهاد بآي القرآن

ـ الجزء الرابع ـ



عز الدين رمضاني

رئيس التحرير

فهذه مقالةٌ أخرى تأتي تتمَّة لسابقتها في بيان أخطاء الاستشهاد والاستدلال بآيات القرآن أو بجزءٍ منها، الَّتي تُساق في غير محلِّها، أو توضع في غير موضعها، أو يقصر معناها على معنى مرجوحٍ، أو يهمل حملها على دلالة السِّياق بسوابقه ولواحقه، وما إلى ذلك من الأمور الَّتي سبقت الإشارة إليها[1].

الآية الرابعة ـ قوله تعالى:

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾

[القصص: 77]

○ **وجه الخطأ:** قَصْرُ معنى هذه الجملة في الآية على المشهور المتبادر، وهو: «لا تنسَ جزءًا من متاع الدُّنيا ورزقها»، وكثيرًا ما يُواجه بهذا المعنى المنقطعون لعبادة ربِّهم بفرائض الطَّاعات ونوافلها؛ خوفًا عليهم من إضاعة أنفسهم بتخلِّيهم عن الارتزاق والعمل الدُّنيوي.

(1) انظر المقال بالعنوان نفسه في العدد الثَّالث من مجلَّة «الإصلاح» (ص6).

والمعنى المذكور ـ وإنْ كان صحيحًا ـ، وقد قال به جمعٌ مِنَ المفسِّرين، وهو أحد القولين في الآية؛ إلاَّ أنَّ القول الآخر ـ وهو تفسير «النَّصيب من الدُّنيا» بالعمل الصَّالح ـ يكاد يكون هو المتعيَّن والرَّاجح؛ لجملة أمور منها:

أوَّلاً: أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ إذا فُسِّر بأنَّ نصيب العبد في دنياه هو عمله بطاعة الله؛ يكون ذلك تأكيدًا لمطلع الآية: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[2]، والقاعدة في التَّفسير أنَّه: «غير جائز صرف

(2) «قواعد وفوائد لفقه كتاب الله» للجوعي (ص71).

الكلام عمَّا هو في سياقه إلى غيره إلاَّ بحجَّةٍ يجب التَّسليم لها مِن دلالة ظاهرِ التَّنزيل، أو خبرٍ عن الرَّسول تقوم به حجَّة»[3]؛ لأنَّ «توجيه الكلام إلى ما كان نظيرًا لِمَا في سياق الآية أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلاً عنه»[4].

وعند التَّأمُّل في الآيات الَّتي قبل هذه الآية وفي الآيات الَّتي بعدها يَتَّضح أنَّها جاءت جميعها للتَّرغيب في عمل الآخرة وعدم الاغترار بزهرة الحياة الدُّنيا والانهماك في ملذَّاتها.

وأوَّل هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص].

قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رحمه الله:

«وفيه: عدم الاغترار بعطاء الدُّنيا»[5].

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ﴾ [القصص: 60].

قال الشَّيخ محمَّد رحمه الله[6]:

«وفيه: التَّزهيد في الدُّنيا ولو عَظُمَت عند النَّاس، كما زهَّد تعالى فيها في غير موضع من كتابه، وكما قال ﷺ: «مَثَلُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ كَمَا يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ فِي اليَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ بِهِ»[7].

وثالثها: قوله تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص].

قال الشَّيخ محمَّد رحمه الله:

«فيه: التَّرغيب في الآخرة كما قال: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ ﴾ [النحل: 96]»[8].

ورابعها: قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص].

قال ابن جُزي في «التَّسهيل» (148/2):

«إيضاح لِمَا قبلها مِنَ البَوْن بين الدُّنيا والآخرة، والمراد بمن وعدناه المؤمنين، وبمن متَّعناه الكافرين».

وجميع هذه الآيات جاءت قبل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ﴾، وأمَّا الآيات الَّتي بعدها فيتصدَّرها مضمون قصَّة قارون، وفيها التَّزهيد في الدُّنيا والتَّرغيب في الآخرة، وأحوال كلِّ فريق منهما، كقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص]، وقوله بعدها: ﴿ وَقَالَ

(3) من كلام ابن جرير في «تفسيره» (389/9).

(4) من كلام ابن جرير في «تفسيره» (91/6).

(5) «الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (362/19).

(6) «الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (362/19).

(7) هو في «صحيح مسلم» (2858)، ولفظه: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وأشار يحيى بالسبابة - فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ»، وكذا في «مسند أحمد» (18008) بلفظ مقارب.

(8) «الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (362/19).

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ [القصص].

ثمَّ الآية الَّتي جاءت في نهاية القصَّة، وهي قوله: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص].

وعليه يتعيَّن حمل الكلام على معنى واحد؛ لأنَّه أَوْفَقُ للنَّظم وأليقُ بالسِّياق، ولم يرد دليلٌ يوجب حمل الكلام على معنى آخر، ممَّا يؤكِّد صحَّة القاعدة، فإنَّ «إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أَوْلَى مِنَ الخروج به عنهما، إلاَّ بدليل يجب التَّسليم له»[9].

ثانيًا: أنَّ حمل الآية على التَّفسير المشهور؛ وَضْعٌ لها في غير موضعها، قال عون بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: «إنَّ قومًا يضعونها على غير موضعها: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ تعمل فيها بطاعة الله»[10].

ثالثًا: أنَّ تفسير النَّصيب مِنَ الدُّنيا بالعمل بطاعة الله هو قول أكثر المحقِّقين من أهل العلم بالتَّأويل، ونسبه ابن الجوزي في «زاد المسير» (6/241) وأبو حيَّان في «البحر المحيط» (7/128) إلى الجمهور.

ومِنْ هؤلاء الأعلام نذكر:

○ عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما: أخرج الطَّبري بسند حَسَنٍ عن علي بن أبي طلحة عنه قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ يقول: «لا تترك أنْ تعمل لله في الدُّنيا»[11].

○ مجاهد رحمه الله (ت101هـ): أخرج الطَّبري بسنده إلى مجاهد: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ قال: «العمل بطاعته»[12].

وأخرج عبد الرَّزَّاق في «تفسيره» (2/78) عن مَعمر عن مجاهد قال: «العمل بطاعة الله نصيبه من الدُّنيا يُثاب عليه في الآخرة»[13].

○ مقاتل بن سليمان رحمه الله (ت150هـ): قال في «تفسيره» (2/505): «يعني ولا تتركْ حظَّك من الدُّنيا أن تعمل فيها لآخرتك».

○ عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله (ت183هـ): أخرج الطَّبري في «تفسيره» (18/323) بسنده إلى زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ قال: «لا تنسَ أن تُقدِّم مِنْ دنياك لآخرتك؛

(9) انظر «قواعد التَّرجيح عند المفسِّرين» لـ د. حسين الحربي (1/111).

(10) «جامع البيان» (18/322 ـ 323)، وانظر كتاب: «نقد الصَّحابة والتَّابعين للتَّفسير» لـ د. عبد السَّلام الجار الله (ص167).

(11) «جامع البيان» (18/322)، وابن أبي حاتم (9/3010) من طريق أبي صالح به، وعزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (18/509) إلى ابن المنذر.

(12) «جامع البيان» (18/323).

(13) وعزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (18/510) إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فإنَّما تجد في آخرتك ما قدَّمت مِنَ الدُّنيا فيما رزقك الله».

○ ابن جرير الطَّبري رحمه الله (ت310): يقول في «تفسيره» (322/18): «ولا تترك نصيبك وحظَّك من الدُّنيا أنْ تأخذ فيها بنصيبك من الآخرة، فتعمل فيه بما ينجيك غدًا من عقاب الله، وبنحوِ الَّذي قُلْنَا في ذلك قال أهلُ التَّأويل».

○ أبو إسحاق الزّجاج رحمه الله (ت311هـ) قال: «لا تنسَ أن تعمل لآخرتك؛ لأنَّ حقيقة نصيب الإنسان من الدُّنيا الَّذي يعمل به لآخرته»[14].

○ أبو اللَّيث السَّمَرْقَنْدِي (ت375هـ): قال في تفسيره المسمَّى «بحر العلوم» (527/2): «يعني لا تترك حظَّك مِنَ الدُّنيا أن تعمل لآخرتك» واقتصرَ على هذا المعنى فقط.

○ ابن أبي زمنين (ت399هـ): وعبارته كما في «تفسيره» (335/3): «اعمل في دنياك لآخرتك»، ولم يذكر سوى هذا القول.

○ أبو المظفر السَّمعاني رحمه الله (ت489هـ): قال في «تفسيره» (156/4): «وقوله ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي طلب الآخرة بالَّذي تعمل في الدُّنيا، ومعناه: اعمل في الدُّنيا لآخرتك».

رابعًا: أنَّ تفسير النَّصيب من الدُّنيا بالعمل الصَّالح أقربُ إلى العِظَة والاعتبار مِنَ القول الآخر؛ لأنَّه الَّذي يكاد يغفل عنه أكثر الخلق، أمَّا الاشتغال بالدُّنيا والانصراف إلى ملذَّاتها فهذا دأب البشر وإلْفُهُم بها، لذا لا يحسن التَّذكير به، خاصَّةً لمن كانت الدُّنيا شغله الشَّاغل، وفي هذا يقول أبو حيَّان في «البحر المحيط» (128/7) عند نقله لتفسير ابن عبَّاس والجمهور: «معناه: ولا تضيِّع عمرك في أن لا تعمل صالحًا في دنياك؛ إذِ الآخرة إنَّما يُعمل لها في الدُّنيا، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصَّالح فيها، وهذا التَّأويل فيه عِظَة».

خامسًا: أنَّ تفسير النَّصيب مِنَ الدُّنيا بأنَّه العمل لها وطلب الرِّزق فيها أشبه في معناه ـ من حيث الظَّاهر ـ بمقولة: «اعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غدًا»[15].

ومع ذلك؛ فإنَّ حمل العبارة في شقِّها الأوَّل على معنى الانهماك في الدُّنيا والاشتغال بها وجمع حُطامها إلى درجة الخلود فيها، منافٍ للمعنى الوارد في شقِّها الثَّاني وهو التَّفرُّغ لعمل الآخرة الَّذي لا يكون غالبًا إلاَّ بترك الأوَّل، ولا يمكن الجمع بين المتضادَّين؛ لذا يتعيَّن المصير إلى تفسير العمل في مطلع العبارة بأنَّه العمل للآخرة.

وفي هذا يقول الشَّيخ العلاَّمة محمَّد ناصر الدِّين الألباني رحمه الله في معرض تعقيبه على معنى

(14) «معاني القرآن» (155/4).

(15) رُوي مرفوعًا وموقوفًا، ولا أصل له مرفوعًا، كما لا يصح موقوفًا، وإن اشتهر على ألسنة النَّاس، انظر «السِّلسلة الضَّعيفة» (63/1).

الأثر الَّذي أورده[16]: «ثمَّ؛ إنَّ هذا السِّياق ليس نصًّا في أنَّ العمل المذكور فيه هو العمل للدُّنيا، بل الظَّاهر منه أنَّه يعني العمل للآخرة، والغرض منه الحضُّ على الاستمرار برفقٍ في العمل الصَّالح، وعدم الانقطاع عنه، فهو كقوله ﷺ: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللّٰهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**» متَّفق عليه».

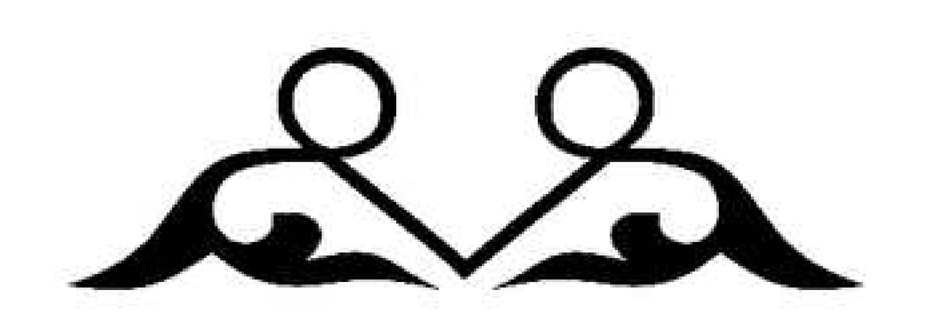
سادسًا: أنَّ بعض السَّلف كقتادة والحسن وغيرهما فسَّروا النَّصيب في الدُّنيا بأنَّه طلب الحلال، وهذا المعنى لا يتحقَّق إلاَّ بالسَّعي في طلب الرِّزق والكدِّ في الدُّنيا، وهو ما استحسنه جدًّا القاضي أبو بكر بن العربي في «أحكامه»[17]، لَمَّا قال: «وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: «ولا تنس الحلال، فهو نصيبك من الدُّنيا»، ويا ما أحسن هذا!».

أقول ـ والله أعلم ـ: إنَّ مثل هذا التَّفسير لا يتنافى مع تفسير النَّصيب في الدُّنيا بالعمل الصَّالح؛ لأنَّ طلب الحلال لا يخلو من مجاهدة النَّفس ومخالفة هواها، ومراقبة الله عَزَّوَجَلَّ والوقوف عند حدوده، فيعدُّ مِنْ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

وعليه فيكون المعنى الأول متضمِّنًا للمعنى الثَّاني، وذلك بذكر بعض أفراده وأنواعه.

وفي الختام؛ فإنَّه يجدر التَّنبيه إلى أنَّ من وقف على عبارات المفسِّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ بأنَّه حظُّ الإنسان من الدُّنيا والتَّمتُّع بها؛ يجدها عبارات متوازنة ودقيقة، لا توحي عند استقرائها بالمبالغة في الحضِّ على السَّعي للدُّنيا، بل فيها ما يفيد أنَّها أقلُّ إغراقًا في الحثِّ على الانكباب على الدُّنيا، خلافًا لِما قد يفهمه العوامُّ، ومن لا فهم له في القرآن.

والله تعالى أعلم، وصلَّى الله على محمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم.



(16) «السِّلسلة الضَّعيفة» (1/ 65).

(17) «أحكام القرآن» (3/ 513).

حديث في الألفة

توفيق عمروني

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ المُؤْمِنَ يَأْلَفُ، ولاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ».

أخرجه الحاكم (73/1) وقال: «صحيح على شرط الشَّيخين، ولا أعلم له علة»؛ وتعقبَّه الذَّهبي بأن فيه انقطاعا؛ ووصله أحمد في «المسند» (9187)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (180)، والبزار في «المسند» (8919)، والبيهقي في «الكبرى» (236/10)، والخطيب في «تاريخه» (288/8)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (710/1).

وجاء الحديث أيضًا عن:

ـ جابر رضي الله عنه مرفوعا: **«المؤْمِنُ مَأْلُوفٌ، وَلا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ، وَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ»** أخرجه النقاش في «فوائد العراقيين» (99)، والقضاعي في «الشهاب» (129)، والبيهقي في «الشعب» (7658)، والطبراني في «الأوسط» (5787)، وحسَّن إسناده الألباني في «الصَّحيحة» (426)، وجاء أيضا عن:

ـ سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعا: **«المُؤْمِنُ مَأْلَفَةٌ، وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ»** أخرجه أحمد (22891)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (179)، والبيهقي في «الشعب» (7252)، والطبراني في «الكبير» (131/6)، وإسناده ضعيف لأجل مصعب ابن ثابت، وجاء من طريق:

ـ ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: **«المؤمنُ يؤلَفُ، ولا خير فيمن لا يَألَفُ ولا يُؤلَف»** أخرجه تمام في «فوائده» (944)، وابن عساكر في «تاريخه» (432/5)؛ وورد موقوفا؛ أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (35686 ـ عوامة)، والبيهقي في «الشعب» (7768)، والطبراني في «الكبير» (200/9)، قال الهيثمي: «وفيه المسعودي، وقد اختلط؛ وبقية رجاله رجال الصحيح»؛ ورجَّح الدارقطنيُّ الموقوفَ على سواه، كما في «العلل» (183/8).

وممَّا ذُكر شاهدًا لهذا الحديث:



حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: «**أكملُ المؤمنين إيمانا أحاسنهم أخلاقا، الموطَّئون أكنافًا، الَّذين يألَفُون ويُؤلَفُون، وليس منَّا مَنْ لا يألَفُ ولا يُؤلَف**» أخرجه الطبراني في «الأوسط» (4422)، وفي «الصغير» (605)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (28/2)، وقد صحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (751).

إنَّ من أسمى الروابط التي عقدها الإسلام رابطة الأخوَّة في الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، فجاء بصيغة القصر المفيدة للحصر؛ ليدلَّ على أنَّ معنى الأخوَّة بينهم معلوم مقرَّر؛ تضمَّن تقريرَه نصوصُ الوحي، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: 10]؛ وقوله ﷺ: «**المُسلِمُ أَخُو المُسْلِمِ**»، وقوله ﷺ: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»، ونحوها، وكلُّها في ترسيخ هذه الرَّابطة المتينة أخوَّة الإسلام.

ومن أوَّل أعماله ﷺ لَمَّا هاجر إلى المدينة أن آخى بين المهاجرين والأنصار؛ لتزيد ألفتهم، ويقوى تناصرهم، فلُحْمَة المجتمع المسلم أخوَّة الإسلام؛ قال ﷺ في أبي بكر رضي الله عنه: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُهُ خَلِيلاً، ولَكِنْ أُخُوَّةُ الإسْلاَمِ أَفْضَلُ**»[1].

فلا غرو أن يطالب المسلم بحفظ هذه الأخوة من أن يعتريها شيء من الوهن والخلل، وأن يحفظها كما يحفظ بدنه من كل ما يوهنه ويضعفه، وأُمِر باجتناب كل ما يقطع أوصالها، ويفكك أواصرها كالتَّحاسد والتَّدابر والتَّقاطع والتَّباغض والظلم والبغي والغيبة والنَّميمة ونحوها.

وإنَّ حديث الباب يرشد إلى وصف يجدر بالمسلم أن يتحلى به ليكون عونا له على تمتين الصِّلة بإخوانه، وإرساء جسور المحبَّة والتَّواصل بينه وبينهم، ليهنأ بذلك عيشُه، وتَطيب حياتُه، ويسعَد معه من حوله، وهو أن يكون ألِفًا يألَفُ النَّاسَ ويألفُونَه، يأنسُ بهم ويأنسُونَ به؛ فلا يرى منه مُجالِسُه إلاَّ حُسْنَ الأخلاق، وسهولةَ الطِّباع، ولِينَ الجانب، وانشراحَ الصَّدر، وبشاشةَ الوجه، والتَّودُّدَ والمحبَّةَ، لا يملُّ من طول المكث معه، ويتحسَّر لفراقه.

والأُلْفَةُ: اسمٌ من الائتِلافِ؛ وهي الأنسُ والالتئَامُ والاجتِماعُ، وتَألَّفَ القومُ بمعنَى اجْتَمعُوا وتحَابُّوا، وألَّفْتُ بينهم تَأْلِيفًا.

فخلاصة تعريف الأُلفة من كتب اللُّغة والمعاجم: أنَّها اجتماع مع التئام ومحبة.

فالأُلفَة تعني أن يكون في كلٍّ واحد من الشَّخصين ميلٌ لصاحبه، ورغبةٌ في مؤاخاته.

وإنَّنا بأمسِّ الحاجة لمثل هذه الأُلفة، فنحن من آدم، وآدم عليه السلام أبو البشر وأوَّل إنسان مخلوق اسمه مأخوذ من الأُدْم: وهو الألفة والاتِّفاق؛ يقال: «أدَمَ أو آدَمَ اللهُ بينهما» - أي أصلَح وألَّف -؛ وفي الحديث: «**انظرْ إليها فإنَّه أحرى أن يُؤْدَمَ بينكُما**»، يعني أن تكون

(1) أخرجه البخاري (3657).

بينكما المحبَّة والاتِّفاق[2].

فالنَّاس تختلف آراؤهم وأذواقهم وطباعهم، وتتنوَّع أخلاقهم ونفوسهم، فمنهم أصحاب النُّفوس الشَّريفة، ومنهم أصحاب النُّفوس الوضيعة، ومنهم أهل الودِّ والوفاء والكرم، ومنهم أهل البغض واللُّؤم والحسد، ومنهم الهادئ الثَّابت، ومنهم المتلوِّن المتغيِّر العَزوف[3]، ومنهم المِجْذَام[4] ومنهم المذَّاع[5]، وهكذا...

فأفضلُ مُعينٍ على العيش مع هذه الأنفس المتباينة والطَّبائع المختلفة أن تتألَّفها؛ ليصفُوَ العيشُ، ويزولَ الكدَر، وتسودَ الرَّاحة، وصدَقَ من قال: «القلوبُ كالطَّير في الألفةِ إذَا أَنِستْ».

ولهذا قال ﷺ: «**لاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ**»؛ لأنَّ صلاح حال الإنسان مع غيره بهذه الألفة الجامعة الَّتي تجعل القلوب إليه منعطفة، وشرورهم عنه مندفعة.

قال الماوردي عن هذه الأُلفة الجامعة: «فلأَنَّ الإِنْسَانَ مَقْصُودٌ بالأَذِيَّةِ، مَحْسُودٌ بالنِّعْمَةِ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَلِفًا مَأْلُوفًا تَخَطَّفَتْهُ أَيْدِي حَاسِدِيهِ، وتَحَكَّمَتْ فيه أَهْوَاءُ أَعَادِيهِ، فَلَمْ تَسْلَمْ لَهُ نِعْمَةٌ، ولَمْ تَصْفُ لَهُ مُدَّةٌ.

فإذا كانَ أَلِفًا مَأْلُوفًا انتصَرَ بالأُلْفةِ على أَعَادِيهِ، وامْتَنَعَ مِنْ حَاسِدِيهِ، فسَلِمَتْ نِعمَتُهُ مِنْهُمْ، وصَفَتْ مُدَّتُهُ عَنْهُمْ، وإنْ كَانَ صَفْوُ الزَّمَانِ عَسِرًا، وسِلْمُهُ خَطَرًا»[6].

وإنَّ هذه الأُلفة المنشودة أضحت بين كثير من أهل الإسلام مفقودة، وحلَّ محلَّها الجفاء والغلظة، والفظاظة والتَّنافر، وسادت الوحشة بين أفراد المجتمع الواحد، وبين أفراد الحيِّ الواحد، وبين المصلِّين في المسجد الواحد، وأحيانًا بين الجيران ذوي القربى في المسكن الواحد، وأحيانًا أخرى بين أفراد الأسرة الواحدة تحت السَّقف الواحد، وتشتدُّ الوحشة وتنعَدِمُ الألفة في بعض الأوقات لتصل إلى حدِّ التَّقاتل، والتَّشاجر والتَّناحر، **وإنَّ الَّذي جرَّ إلى هذه النُّفرةِ المستعصية، والجفوةِ المقيتةِ ضعفُ الإيمان وقلَّةُ العلم بالدِّين وتركُ العملِ بكثيرٍ من أحكامه**، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة: 14]؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فَمَتَى تَرَكَ النَّاسُ بَعْضَ مَا أَمَرَهُمْ الله بِهِ وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ»[7].

قال المناوي: «والأُلفة سببٌ للاعتصام بالله وبحبله، وبه يحصُل الإجماع بين المسلمين، وبضدِّه تحصل النُّفرة بينهم»[8].

ثمَّ إنَّ لفظ حديث الباب يدلُّ على أنَّ الَّذي يألَف ويُؤلف هو من تحقَّق بوصف الإيمان.

وخيرُ أنموذج على هذا الائتلاف المطلوب والاتِّفاق المرجوِّ جيل الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم

(2) «مختار الصحاح» (ص: 10).

(3) الَّذي لا يثبت على صحبة أحد لملله.

(4) هو الَّذي يواد صاحبه فإذا أحسَّ ما يسوؤه أسرع إلى القطيعة والمصارمة.

(5) هو الرَّجل الَّذي لا وفاء له ولا يحفظ أحدًا بالغيب.

(6) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص183).

(7) «مجموع الفتاوى» (421/3).

(8) «فيض القدير» (253/6).

الّذين آمنوا بالنّبيِّ ﷺ، واجتمعوا على الإسلام، وتآلفت قلوبهم على الإيمان، فكانوا كالشَّخص الواحد، بعد أن كانت الضَّغائن والأحقاد تملأ صدورَهم ـ أي بين الأوس والخزرج ـ لسنين عديدة، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]، فامتنَّ الله تعالى عليهم بهذه الألفة الّتي لا يعادلها مال الدُّنيا، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «النِّعمُ تُكفَر، والرَّحِم تُقطَع، ولم نَر مثلَ تقارُب القلوب»[9].

وإنَّ هذه الألفة توفيقٌ من الله ـ جلَّ وعلا ـ وحده، إذ لا يقدر على تقليب القلوب إلاَّ خالقُها قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال].

وإنْ كان التَّأليف بين القلوب من الله إلاَّ أنَّه بأسبابه، فالمسلم الّذي يألف ويُؤلَف، يؤلِّف الله به بين المتفرِّقين والمختلفين، ويأتلفون حوله، قال النَّبيُّ ﷺ في خطبته بعد تقسيم غنائم حُنين: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي، وعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي**»[10].

(9) «الأدب المفرد» (262)، وهو صحيح.

(10) أخرجه البخاري (4330).

فوجبَ أن ندرك عظمَ أمر هذه الألفة وضرورةَ التَّحلِّي بها، فهي واجبٌ من الواجبات قال القاضي عياض: «والألفة إحدى فرائض الإسلام، وأركان الشَّريعة، ونظام شمل الدِّين»[11]؛ والّذي يُشيعُ هذه الألفةَ بين النَّاس أسبابٌ كثيرةٌ، أذكر جملة منها، تكون كالمنبِّه لما وراءها:

□ فأوَّل أسبابها: **التَّشاكل والتَّجانس والتَّوافق والتَّقارب**، قال النَّبي ﷺ: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[12].

قال ابن القيم: «وأنت إذا تأمَّلت الوجود لا تكاد تجد اثنين يتحابَّان إلاَّ وبينهما مشاكلة أو اتِّفاق في فعل أو حال أو مقصد؛ فإذا تباينت المقاصد والأوصاف والأفعال والطَّرائق لم يكن هناك إلاَّ النُّفرة والبعد بين القلوب؛ ويكفي في هذا الحديث الصَّحيح عن رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ**»[13].

قال ابن حبَّان رحمه الله: «سبب ائتلاف النَّاس وافتراقهم ـ بعد القضاء السَّابق ـ هو تعارف الرّوحين؛ وتناكر الرّوحين، فإذا تعارف الرّوحان وجدت الألفة بين نفسيهما، وإذا تناكر الرّوحان وجدت الفرقة بين جسميهما»[14].

فأعظم أسباب الائتلاف التَّشاكل والتَّجانس،

(11) النووي في «شرح مسلم» (2/11).

(12) أخرجه مسلم (2638) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(13) «روضة المحبين» (ص74).

(14) «روضة العقلاء» (ص108).

ومن الحِكَم السَّائرة قولهم: «الأَضدَادُ لا تتَّفِقُ، والأَشكالُ لا تفتَرِقُ»؛ لذلك كلّه حثَّ الإسلام على مصاحبة الأخيار، ومجالسة الأبرار، ومشابهة الكرام، وتجنُّب صحبة الأشرار والفجَّار، ومخالفة الكفَّار.

❑ ومن أسباب الألفة: **التَّودُّد وإظهار المحبَّة وإخبار المحبوب بذلك** قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فِي اللهِ فَلْيُعْلِمْهُ فَإِنَّهُ أَبْقَى فِي الأُلْفَةِ وَأَثْبَتُ فِي المَوَدَّةِ**»[15].

وثبت أَنَّ أَبَا سَالِمِ الجَيْشَانِي أَتَى أَبَا أُمَيَّةَ فِي منزلِهِ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «**إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ فَلْيَأْتِهِ فِي مَنْزِلِهِ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ لله** عَزَّ وَجَلَّ»؛ وَقَدْ أَحْبَبْتُكَ فَجِئْتُكَ فِي مَنْزِلِكَ[16].

قال البَغوي رحمه الله: «ومعنى الإعلام: هو الحثُّ على التَّودُّد والتَّآلف، وذلك أنَّه إذا أخبره استمال بذلك قلبَه، واجتلبَ به ودَّه»[17].

وفي هذه المصارحة بالحبِّ زيادة بالغة في الألفة، و لها أثر طيِّبٌ في قبول النُّصح والتَّوجيه، لذلك قدَّمها النَّبيُّ ﷺ بين يدي وصيَّته لمعاذ لَّما قال له وقد أخذ بيده: «**يَا مُعَاذُ! والله؛ إِنِّي لأُحِبُّكَ، والله؛ إِنِّي لأُحِبُّكَ، قال: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[18].

❑ ومن أسبابها: **إفشاء السَّلام**، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا تَدْخُلُون الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؛ أَفْشُوا السَّلامَ بينكم**»[19].

فإفشاء السَّلام يزيلُ العداوة، ويقطعُ الخصومة، ويَسُلُّ سخائمَ الصُّدور، ويورث الحبَّ؛ وكم يجمُل بالمسلِّم أن يُسبل على سلامه بَسْمةً على شفتيه مع طلاقة الوجه، ثمَّ أن يسأل عن حال المسلَّم عليه وحالِ من يعِزُّ عليه؛ فكلُّ ذلك أدعى للألفة، وبقاء المودَّة، وتوثيق عرى الإخاء.

❑ ومن أسبابها: **التَّفقُّد والزِّيارة**، فعن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تبارك وتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحابين فِيَّ، والمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، والمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، والمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**»[20].

فالزِّيارة من أعظم ما يوطِّد العلاقة، ويُنمي المودَّة ويشيع المحبَّة بين المتزاورين، بخاصَّة إذا كانت مجرَّدة لله عَزَّ وَجَلَّ لا يُراد بها غيرَ وجهه الكريم، لذلك رتَّب الله عليها الأجر العظيم، والثَّواب الجزيل.

❑ ومن أسبابها: **مواساة المصابين من المؤمنين**، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ**

(15) أخرجه وكيع في «الزُّهد» (337) عن علي بن الحسين مرسلاً؛ وابن أبي الدُّنيا في «الإخوان» (69) عن مجاهد مرسلاً أيضًا، وحسَّنه الألباني بمجموع طرقه في «الصَّحيحة» (1199).

(16) أخرجه أحمد (21514)، وهو صحيح.

(17) «شرح السُّنة» (21514).

(18) رواه أَبُو داود (1522)، والنسائي في «الكبرى» (9937) بإسناد صحيح.

(19) رواه مسلم (54).

(20) رواه مالك في «الموطأ» بإسناد صحيح.



عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّه عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّه فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، واللَّه فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[21].

قال ابن القيِّم في «الفوائد» (ص250): «المواساة للمؤمنين أنواعٌ: مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنَّصيحة والإرشاد، ومواساة بالدُّعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتَّوجُّع لهم، وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلَّما ضعُفَ الإيمانُ ضعفت المواساة، وكلَّما قويَ قويت، وكان رسولُ اللَّه ﷺ أعظمَ النَّاس مواساةً لأصحابه بذلك كلِّه، فلأتباعه من المواساة بحسب اتِّباعهم له».

فمن أعظم أعمال البرِّ الَّتي تربط الوشائج، وتقوِّي الأواصر، تفريج هموم الإخوان، وإزالة غمومهم، وتنفيس مصائبهم، والسَّعي لقضاء حوائجهم، وتسليتهم عند المصاب.

❑ ومن أسبابها: **المداراة**، قال المهلَّب: «المداراة أصل الأُلفة، واستمالة النُّفوس من أجلِ ما جَبَل اللَّه عليه خلقَه وطبعَهم من اختلاف الأخلاق»[22]؛ ولا يخفى على ـ القارئ الكريم ـ حَدِيث عَائِشَة رضي الله عنها: أنَّ رجلاً اسْتَأذَنَ عَلَى النبيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**ائْذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ**»؛ ثمَّ لما دخل ألانَ له الكلام؛ قالَ ابن بَطَّال: «المداراةُ منْ أَخْلاق المؤمِنِينَ، وهي خَفْضُ الجَنَاح لِلنَّاسِ، ولِين الكَلِمَة، وتَرْك الإغْلاظ لَهُمْ في القوْل، وذَلكَ مِنْ أَقْوَى أَسْبَاب الأُلْفَة وسلِّ السَّخيمة»[23]

وفَرقٌ بين المداهَنة والمدارَاة؛ فالمداهنة «فسَّرها العلمَاء بأنَّها مُعَاشرة الفاسِق وإظهار الرِّضا بمَا هُو فيهِ منْ غيْر إنْكارٍ عليهِ؛ و**المدَارَاةُ**: هي الرِّفق بالجاهِل في التَّعليم، وبالفاسِقِ في النَّهي عن فِعْله، وتَرْك الإغْلاظ عليْه حيثُ لا يظْهر ما هُوَ فيهِ، والإنْكار عليهِ بلُطْفِ القَوْل والفِعْل، ولا سيمَا إذا احتِيجَ إلى تألُّفه، ونحو ذلكَ»[24].

❑ ومن أسبابها: **حفظ السِّرِّ**، فالمرء مجبول على حبِّ من يحفظ عليه أسراره، ولا يهتك عليه أستاره، ومن عثر على من هذا وصفُه فقد عَثر على كنزٍ لا يساوَم، وكما قيل قديمًا: «قلوب الأحرار قبورُ الأسرار»، وللأسف أضحى اليوم حفظ السِّرِّ من الحقوق المهدَرَة، بل بلغت الوقاحة ببعضهم أنَّه يحفظ سرَّ أخيه طالما جمعتهما صحبةٌ، وأمَّا إذا تقطَّع حبلُ الوصال بينهما أفشى سرَّه وأذاع خبيئته، وليس هذا من المروءة في شيء، بل هو لؤمٌ مستقبَحٌ، لا يبقى معه للألفَة أثرٌ.

❑ ومن أسبابها **ترك الجدال والمراء واللِّجاج**، وهنا يجب التَّنبيه إلى أنَّه ليس من الحفاظ على الألفة أن نترك الرَّاجح ونعمل بالمرجوح أو نتجنَّب النِّقاش العلمي الرَّصين؛ لأنَّ الخلافَ يتعذَّر رفعُه في الأمَّة، «وما زالت الصَّحابة يختلفون في أحكام الحوادث وهم مع ذلك متآلفون» كما قال القرطبي في «تفسيره» (159/4)؛ لكن المذموم هو التَّشنُّج والتَّصلُّب والتَّمادي في المراء والجدال

(21) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (2699).

(22) «شرح ابن بطال على البخاري» (295/7).

(23) «شرح ابن بطال على البخاري» (305/9).

(24) «فتح الباري» (528/10).

المفسد لكلِّ أُلفة قال ﷺ: «**اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ**»[25]؛ قال الآجري: «وعند الحكماء: أنَّ المراء أكثره يغيِّر قلوب الإخوان، ويورث التَّفرقة بعد الألفة، والوحشة بعد الأنس»[26].

□ ومن أسبابها: **تجنُّب كثرة المزاح**؛ وإن كان لا يخلي المرءُ حياتَه من شيءٍ من المزاح ليأنس به إلى مصاحِبه، ويتودَّد به إلى مخالطِه، شريطةَ أن يكونَ قصدًا وحقًّا؛ لأنَّ العقلاء والحكماء اتَّفقوا على أنَّ كثرة المزاح تخدشُ الحقوق، وتدعو إلى القطيعة والعقوق.

□ ومن أسبابها: **ترك كثرة العتاب**؛ فليس من الحفاظ على الألفة ترك العتاب بالكليَّة، لأنَّ من طبع البشر وقوعَهم في الخطأ والزَّلل وذلك موجبٌ للعتاب والمؤاخذة وإظهار عدمِ الرِّضا، فلو لم تعاتب صديقك وصاحبك مرَّةً بعد مرَّةٍ لكان دليلا على عدم اكتراثِك واهتمامِك به، وقد قيل: «من لم يعاتب علَى الزَّلَّة، فليس بحافظٍ للخُلَّة»، لكنَّ المذمومَ هو كثرةُ العتَابِ والمبالغة فيه؛ فعلى المرء أن يتوسَّط في هذا الباب فلا يبني صحبته لأخيه على المسامحة وحدها، كما لا يبنيها على المشاحة وحدها، فالعتاب في وقته، والتَّجاوز والعفو في حينه، قال بعضُ الحكماء: «لا تُكثِرَنَّ مُعَاتَبَةَ إِخْوَانِك، فَيَهُونَ عَلَيْهِمْ سَخَطُك».

واعلم أنَّ من رام أن يكون جميع من حوله معه متَّفقون فقد طلب مستحيلاً، فإنَّ إخوانك على طبقاتٍ متنوِّعة، وصفاتٍ مختلفة، ولكلِّ واحدٍ منهم ما يختصُّ به، فيصلُحُ في باب ولا يصلحُ في باب آخر، وهكذا...؛ فلا يمكن أن تجد أحدًا منهم يستعان به في كلِّ حالٍ، كما يستحيل أن تجده لا يصلح في أيِّ حال، فهذا التَّمايز يوجب عليك أن تنزِّلَ كلاًّ منهم منزلتَه، وتضعه في موضعه بحسب أحواله، وما استقرَّت عليه خصاله وخلاله، فبهذا التَّنوُّع والاختلاف يكون الائتلاف؛ وليكن شعارك في التَّعامل مع الجميع أن تحبَّ لهم الخير والهدى كما تحبُّه لنفسك، وأن لا تُقابلهم إلاَّ بما تحبُّ أن يُقابلوك به امتثالاً لقوله ﷺ: «**فمَنْ أحبَّ أنْ يُزَحْزَحَ عن النَّارِ ويُدخَلَ الجنَّة فلتأتِه منيَّتُه وهو يؤمنُ باللَّهِ واليوم الآخرِ، وليأتِ إلى النَّاسِ الَّذي يحبُّ أنْ يُؤْتَى إليه**»[27]؛ قال النَّوويُّ: «هذا من جوامع كلِمِه ﷺ، وبديعِ حِكَمِه؛ وهذه قاعدةٌ مهمَّةٌ؛ فينبغي الاعتناءُ بها، وأنَّ الإنسانَ يلزَمُ أن لا يفعَلَ مع النَّاس إلاَّ ما يحبُّ أن يفعلُوه معَه»[28].

فانظر ـ أخي القارئ ـ أينَ أنتَ من هذه القاعدة النَّبويَّة العظيمة في التَّعامل، وعضَّ عليها بنواجذك، واعلم أنَّها من أعظم أسباب إشاعة الألفة ونشر المودَّة، ولا تغفل عمَّا تقدَّم من الأسباب، لتكون مألفةً تتألَّفُ عليك القلوب؛ فإنَّه لا خير فيمن لا يألَف ولا يُؤلَف.

(25) البخاري (4773)، ومسلم (2667).

(26) «أخلاق العلماء» (ص59).

(27) روه مسلم (1844).

(28) «شرح مسلم» (12/233).

أوَّل واجبٍ على المكلَّفِ

فريد نمار
إمام خطيب في دولة الإمارات العربية المتحدة

إنَّ التَّوحيد أوَّل دعوة الرُّسل، وهو زُبْدَة الرِّسالة الإلهيَّة، وخلاصة الدَّعوة النَّبويَّة، وعليه أسِّست الملَّة، ومن أجله نصبت القبلة.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 59].

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 65]، وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: 73]، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: 85]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36].

فالتَّوحيد مفتاحُ دعوة الرُّسل، وهو أوَّل ما يُدْخَلُ به في الإسلام، وآخر ما يُخْرَجُ به من الدُّنيا، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**»، فهو أوَّل واجبٍ وآخرُ واجبٍ، فالتَّوحيد أوَّل الأمرِ وآخرُه[1].

قبل الشُّروع في صلب الموضوع؛ فإنَّه ينبغي أنْ يُعلم أنَّ الواجبات تُتلقَّى من كلام الله، ومن المبلِّغ عنه، وهم رسلُه عليهم السلام؛ فإنَّ الله تعالى يحكم ما يريد، فيأمر وينهى ويوجب ويحلِّل ويحرِّم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأصل الدِّين أنَّه لا واجب إلاَّ ما أوجبه الله ورسوله، ولا حرام إلاَّ ما حرَّمه الله ورسوله، ولا مكروه إلاَّ ما كرهه الله ورسوله، ولا حلال إلاَّ ما أحلَّه الله ورسوله، ولا مستحبَّ إلاَّ ما أحبَّه الله ورسوله، فالحلال ما حلَّله الله ورسوله، والحرام ما حرَّمه الله ورسوله، والدِّين ما شرعه الله ورسوله...»[2].

وقال أبو المظفر السَّمعاني رحمه الله: «اعلم أنَّ مذهب أهل السُّنَّة أنَّ العقل لا يوجب شيئًا على أحدٍ، ولا يدفع شيئًا عنه، ولا حظَّ له في تحليل ولا تحريم، ولا تحسين ولا تقبيح، ولو لم يرد السَّمع ما وجب على أحد شيء، ولا دخلوا في ثواب ولا عقاب»[3].

فإذا تقرَّر هذا؛ فإنَّ أوَّل ما أوجبه الله على لسان رسوله، هو: الإقرار بالشَّهادتين، كما قال النَّبيُّ ﷺ لرسوله معاذ بن جبل رضي الله عنه لَمَّا بعثه إلى اليمن: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ**

(1) «مدارج السَّالكين» (443/3) ـ طبعة دار الكتاب العربي، تحقيق الفقي (بتصرف)، والحديث رواه أبو داود (3116)، وصحَّحه الألباني رحمه الله.

(2) «مجموع الفتاوى» (345/29).

(3) «الحجَّة في بيان المحجَّة» لإسماعيل التيمي (314/1 ـ 315).

تَعَالَى» رواه البخاري (6937)، واللفظ له، ومسلم (130)، ولنحله ـ وهو رواية للبخاري (1331) ـ: «**أُدْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ...**».

وهذا الحديثُ ظاهرُ الدِّلالة على أنَّ أوَّل ما يجب على العبيد الإقرار بشهادة التَّوحيد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذا ممَّا اتَّفق عليه أئمَّة الدِّين وعلماء المسلمين، فإنَّهم مُجْمِعُون على ما علم بالاضطرار من دين الرَّسول أنَّ كلَّ كافر، فإنَّه يُدْعَى إلى الشَّهادتين سواء كان معطِّلاً أو مشركًا أو كتابيًّا، وبذلك يصير الكافر مسلمًا، ولا يصير مسلمًا بدون ذلك»[4].

ومن ذلك ما رواه البخاري (2676) ومسلم (36) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ محمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ويُقيموا الصَّلاة ويؤتوا الزَّكاة، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**».

ولمسلم (34) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ...**».

قال أبو محمَّد بن حزم رحمه الله: «أوَّل ما يلزم كلَّ أحدٍ ولا يصحُّ الإسلام إلاَّ به: أن يعلم المرءُ بقلبه عِلْمَ يقينٍ وإخلاص، لا يكون لشيء من الشَّكِّ فيه أثرٌ، وينطق بلسانه ولابدَّ، بأن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله.

برهان ذلك: ـ ثمَّ أسند حديث أبي هريرة»[5].

قال الإمام العلاَّمة عبد الحميد بن باديس رحمه الله: «أوَّل واجب على المكلَّف من مسلمٍ بالغٍ أو كافرٍ يريد الدُّخول في الإسلام: أن يعلم أنْ لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله لحديث معاذ المتقدِّم، ولحديث وفاة أبي طالب: لَمَّا حضرت أبا طالب الوفاة؛ جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أُمَيَّةَ، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا عَمُّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ...**» [البخاري (1294)].

ولقوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ...**».

قال: لا يكفي النُّطق بكلمتي الشَّهادة إذا كان النَّاطق بهما لا يفهم أصل معناهما؛ لقوله في الحديث المتقدِّم: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ**»[6].

ويؤيِّد هذا الَّذي قرَّره الشَّيخ رحمه الله ما رواه مسلم (21) من حديث أبي مالك الأشجعيِّ عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ**»، فإنَّ هذا لا يكون إلاَّ عن عِلْمٍ وفَهْمٍ.

ومن ذلك ما رواه البخاري (1290) عن

(4) «دَرْءُ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» (107/4).

(5) «المحلَّى» (2/1).

(6) «العقائد الإسلاميَّة» (ص26).

أنس رضي الله عنه قال: كان غلامٌ يهوديٌّ يخدم النَّبيَّ ﷺ، فمرض، فأتاه النَّبيُّ ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «**أَسْلِمْ**»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أَطِعْ أبا القاسم ﷺ؛ فأسلمَ.

فخرج النَّبيُّ ﷺ وهو يقول: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**».

وفي لفظ «المسند» (13129): «**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ**».

قال: وفي قوله: «**أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**» دلالة على أنَّه صحَّ إسلامه[7].

ومن ذلك ما رواه التِّرمذي (2953) في قصَّة إسلام عديٍّ بنِ حاتمٍ رضي الله عنه، حيث قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فقال القوم: هذا عديُّ بن حاتم، وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلمَّا دفعت إليه أخذ بيدي، وقد كان قال قبل ذلك: «**إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللهُ يَدَهُ فِي يَدِي**»، قال: فقام فلقيته امرأة وصبيٌّ معها فقالا: إنَّ لنا إليك حاجة، فقام معهما حتَّى قضى حاجتهما، ثمَّ أخذ بيدي حتَّى أتى بي داره، فألقت له الوليدة وسادة، فجلس عليها وجلست بين يديه، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «**مَا يُفِرُّكَ**[8] **أَنْ تَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ سِوَى اللهِ**...» الحديث، وحسَّنه الألباني.

وكذلك كتبه إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، كما في كتابه إلى هِرَقْل ملك الرُّوم وفيه: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**» رواه البخاري (2782)، ومسلم (1773).

قال النَّوويُّ رحمه الله: «قوله ﷺ: «**أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ**» وهو بكسر الدَّال، أي بدعوته، وهي «كلمة التَّوحيد»، وقال في الرِّواية الأخرى الَّتي ذكرها مسلم بعد هذا: «**أَدْعُوكَ بِدَاعِيَةِ الإِسْلاَمِ**»، وهو بمعنى الأولى، ومعناها الكلمة الدَّاعية إلى الإسلام[9]، وهي «شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله»[10].

إلى أمثال هذه الأحاديث، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «وقد تواتر عنه ﷺ أنَّه أوَّل ما دعا الخلق إلى أن يقولوا لا إله إلاَّ الله»[11].

وهذه المسألة محلُّ إجماع بين السَّلف.

قال أبو بكر بن المنذر رحمه الله: «أجمع كلُّ مَنْ أحفظ عنه مِنْ أهل العلم على أنَّ الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وأنَّ كلَّ ما جاء به

(7) «فتح الباري» (3/ 221).

(8) أَيْ مَا يَحْمِلُك عَلَى الفِرَار. [«تحفة الأحوذي» (8/ 231)].

(9) «شرح مسلم» (12/ 110).

(10) قاله ابن حجر: «فتح الباري» (1/ 38).

(11) «مجموع الفتاوى» (17/ 354).

محمَّدٌ حقٌّ، وأَبْرَأُ إلى الله من كلِّ دينٍ يُخالف دين الإسلام ـ وهو بالغ صحيح يعقل ـ أنَّه مسلم، فإن رجع بعد ذلك؛ فأظهر الكُفْرَ، كان مرتدًّا يجب عليه ما يجب على المرتدِّ..»[12].

قال ابن أبي العزِّ الحنفي: «أَوَّلُ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، لا النَّظَرُ وَلا الْقَصْدُ إِلَى النَّظَرِ، وَلا الشَّكُّ، كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لأَرْبَابِ الْكَلامِ الْمَذْمُومِ، بَلْ أَئِمَّةُ السَّلَفِ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الْعَبْدُ الشَّهَادَتَانِ، وَمُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ الْبُلُوغِ لَمْ يُؤْمَرْ بِتَجْدِيدِ ذَلِكَ عَقِيبَ بُلُوغِهِ، بَلْ يُؤْمَرُ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلاةِ إِذَا بَلَغَ أَوْ مَيَّزَ عِنْدَ مَنْ يَرَى ذَلِكَ، وَلَمْ يُوجِبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى وَلِيِّهِ أَنْ يُخَاطِبَهُ حِينَئِذٍ بِتَجْدِيدِ الشَّهَادَتَيْنِ»[13].

هذا؛ وقد خالف أهلُ الكلام المذموم من المعتزلة والأشعريَّة ومن نَحَا نحوَهم هذه الأحاديث الصَّحيحة الصَّريحة، وهذا الإجماع المعلوم، واختلفوا في أوَّل واجبٍ على العبد: هل هو النَّظر والاستدلال المؤدِّي إلى معرفة الله أو المعرفة؟! على قولين.

وقال بعض المعتزلة: أوَّل الواجبات الشَّكُّ[14]!!

ويكفي في ردِّ هذا وإبطاله مخالفتُه للنُّصوص المتقدِّمة وإجماع السَّلف، وكلُّ شرٍّ في ابتداع من خلف.

ويقال لمن زعم أنَّ أوَّلَ واجبٍ على المكلَّف هو النَّظر: بيِّن ـ أوَّلًا ـ أنَّه واجب على كلِّ أحد، ثمَّ بيِّن ـ ثانيًا ـ أنَّه أوَّل الواجبات.

وليس في القرآن ما يدلُّ على أنَّ النَّظر أوَّل الواجبات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والقرآن العزيز ليس فيه أنَّ النَّظر أوَّل الواجبات [بَلْ أَوَّلُ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: 1]، وَلَمْ يَقُلِ انْظُرْ وَاسْتَدِلَّ حَتَّى تَعْرِفَ الْخَالِقَ، وَكَذَلِكَ هُوَ ﷺ أَوَّلُ مَا بَلَّغَ هَذِهِ السُّورَةَ، فَكَانَ الْمُبَلَّغُونَ مُخَاطَبِينَ بِهَذِهِ الآيَةِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمْ يُؤْمَرُوا فِيهَا بِالنَّظَرِ وَالاسْتِدْلالِ]، ولا فيه إيجاب النَّظر على كلِّ أحد، وإنَّما فيه الأمر بالنَّظر لبعض النَّاس، وهذا موافق لقول من يقول: إنَّه واجب على من لم يحصل له الإيمان إلاَّ به، بل هو واجب على كلِّ من لا يؤدِّي واجبًا إلاَّ به، وهذا أصحُّ الأقوال، فإن [الإِقْرَارَ وَالاعْتِرَافَ بِالْخَالِقِ فِطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ فِي نُفُوسِ النَّاسِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَا يُفْسِدُ فِطْرَتَه حَتَّى يَحْتَاجَ إلى نَظَرٍ تَحْصُلُ لَهُ بِهِ الْمَعْرِفَةُ].

فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: 8].

وهذا بعد قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(12) «دَرْءُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ» (107/4).

(13) «شرح العقيدة الطَّحاويَّة» (23/1) ـ طبعة مؤسَّسة الرِّسالة.

(14) «المواقف» للإيجي (165/1 ـ 167) ـ طبعة دار الجيل، «دَرْءُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ» لابن تيمية (52/4)، «مدارج السَّالكين» لابن القيِّم (443/3) ـ طبعة دار الكتاب العربي، تحقيق الفقي (1393 ـ 1973)، «شرح العقيدة الطَّحاويَّة» لابن أبي العزِّ (23/1)، «فتح الباري» لابن حجر (70/1) ـ طبعة دار المعرفة.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم].

ثمَّ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ فالضمير عائد إلى الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف].

فهذا مذكور بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف][15].

أمَّا السُّنَّة؛ فقد تقدَّم ما هو صريحٌ ظاهرُ الدّلالة مع كون ذلك متواترًا تواترًا معنويًّا، وقد قال النَّوويُّ رحمه الله لَمَّا شرح قَوْله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَه إلاَّ اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْت بِهِ**».

قال: «فِيهِ دَلالَة ظَاهِرَة لِمَذْهَبِ الْمُحَقِّقِينَ وَالْجَمَاهِير مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف أَنَّ الإِنْسَان إِذَا اعْتَقَدَ دِين الإِسْلام اعْتِقَادًا جَازِمًا لا تَرَدُّد فِيهِ كَفَاهُ ذَلِكَ وَهُوَ مُؤْمِن مِن الْمُوَحِّدِينَ وَلا يَجِب عَلَيْهِ تَعَلُّم أَدِلَّة الْمُتَكَلِّمِينَ وَمَعْرِفَة اللَّه تَعَالَى بِهَا، خِلافًا لِمَنْ أَوْجَبَ ذَلِكَ وَجَعَلَهُ شَرْطًا فِي كَوْنه مِنْ أَهْل الْقِبْلَة، وَزَعَمَ أَنَّهُ لا يَكُون لَهُ حُكْم الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ بِهِ، وَهَذَا الْمَذْهَب هُوَ قَوْل كَثِير مِنْ الْمُعْتَزِلَة وَبَعْض أَصْحَابنَا الْمُتَكَلِّمِينَ، وَهُوَ خَطَأ ظَاهِر؛ فَإِنَّ الْمُرَاد التَّصْدِيق الجَازِم، وَقَدْ حَصَلَ، وَلأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اكْتَفَى بِالتَّصْدِيقِ بِمَا جَاءَ بِهِ ﷺ وَلَمْ يَشْتَرِط الْمَعْرِفَة بِالدَّلِيلِ؛ فَقَدْ تَظَاهَرَتْ بِهَذَا أَحَادِيث فِي «الصَّحِيحَيْنِ» يَحْصُل بِمَجْمُوعِهَا التَّوَاتُر بِأَصْلِهَا وَالعِلْم القَطْعِيُّ»[16].

هذا؛ وقد قال القرطبي رحمه الله: «ولو لم يكن في الكلام إلاَّ مسألتان هما من مبادئه لكان حقيقًا بالذَّمِّ:

إحداهما: قول بعضهم: إنَّ أوَّل واجب الشَّكُّ، إذ هو اللاَّزم عن وجوب النَّظر أو القصد إلى النَّظر...

ثانيتهما: قول جماعة منهم أنَّ من لم يعرف الله بالطُّرق الَّتي رتَّبوها والأبحاث الَّتي حرَّروها لم يصحَّ إيمانه، حتَّى لقد أُورد على بعضهم أنَّ هذا يلزم منه تكفير أبيك وأسلافك وجيرانك، فقال: لا تشنِّع عليَّ بكثرة أهل النَّار»[17].

سبحان الله! جنَّة عرضها السَّماوات والأرض لا يدخلها إلاَّ شِرْذِمَةٌ منَ المتكلِّمين، وهكذا يفعل أهل البدع يبتدعون بدعًا تُخالف الكتاب والسُّنَّة ويكفِّرون من خالفهم.

ويلزم من هذا القول - كما لا يخفى - تكفيرُ أكابر الصَّحابة المشهود لهم بالجنَّة؛ فإنَّ «من نَظَرَ إلى إسلام أبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ وطلحة وسعد وعبد الرَّحمن وسائر

(15) «دَرْءُ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» (4/107)، وما بين الحاصرتين من «مجموع الفتاوى» (16/328). بتصرُّف يسير.

(16) «شرح مسلم» للنَّووي (1/93).

(17) «فتح الباري» لابن حجر (13/350). دار المعرفة.

المهاجرين والأنصار وجميع الوفود الَّذين دخلوا في دين الله أفواجًا؛ علِمَ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يعرفه واحد منهم إلاَّ بتصديق النَّبيِّين بأعلام النُّبوَّة ودلائل الرِّسالة، ولو كان النَّظر عليهم واجبًا ما أضاعوه، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمهم، ولا أطنب في مدحهم وتعظيمهم، ولو كان ذلك من عملهم مشهورًا أو من أخلاقهم معروفًا؛ لاستفاض عنهم ولشهَّروا به كما شهَّروا بالقرآن والرِّوايات»[18].

وروى أبو عبد الرَّحمن السُّلمي بسنده أنَّ رجلاً جاء إلى المُزَني يسأله عن شيء من الكلام (أي علْمِ الكلام)، فقال: إنِّي أكره هذا، بل أنهى عنه، كما نهى عنه الشَّافعيُّ؛ فإنِّي سمعت الشَّافعيَّ يقول: سُئِلَ مالك عن الكلام والتَّوحيد؟ فقالَ مالك: محالٌ أن يُظنَّ بالنَّبيِّ ﷺ أنَّه علم أمَّته الاستنجاء ولم يعلِّمهم التَّوحيد، فالتَّوحيد ما قاله النَّبيُّ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**»، فما عَصَمَ الدَّم والمالَ، فهو حقيقة التَّوحيد». انتهى[19].

فظهر أنَّ قول من قال: أوَّل الواجبات النَّظرُ، مخالف للكتاب والسُّنَّة وإجماع السَّلف والفطرة.

وبهذا يتبيَّن أنَّ هؤلاء المتكلِّمين لَمَّا أعرضوا عمَّا جاءت به الرُّسل من البيِّنات والهدى، وخاضوا في علم الكلام الَّذي أفسد فطرهم؛ احتاجوا إلى النَّظر لتصحيح إيمانهم الَّذي زعزعته تلك الشُّبهات الكلاميَّة.

ومن ضيَّع الأصول حُرِمَ الوصول، والأصول ما جاء به الرَّسول ﷺ.

ويتبيَّن ـ أيضًا ـ الفرق بين منهج الأنبياء والمرسلين وبين طريقة المتكلِّمين؛ فإنَّ الرُّسل يأمرون بالغايات المطلوبة الَّتي هي أجلُّ الغايات ويذكرون أقوى وأنفع الطُّرق الموصلة إليها، وأهل الكلام الباطل يأمرون بالبدايات والأوائل، وطرقهم الكلاميَّة لا تَروي غليلاً ولا تَشفي عليلاً، بل هي كما قيل:

حجج تهافت كالزُّجاج تخالُها
حقًّا وكلٌّ كاسر مكسور

ومن هداه الله لفهم قول أهل السُّنَّة علم أنَّهم جمعوا محاسن الأقوال وأنَّ قولهم هو القول السَّديد الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول: ﴿**وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ**﴾ [الحج: 24].

والحمد لله رب العالمين.

❑ ❑ ❑

(18) «التَّمهيد» لابن عبد البر (152/7) ـ طبعة وزارة الأوقاف المغربيَّة بتصرُّف.

(19) «فتح الباري» لابن رجب (41/6).

ذكر ما ورد عن الإمام مالك رحمه الله وبعض علماء المالكيَّة بالمغرب في التَّمسُّك بالسُّنَّة وفهم السَّلف ونبذ البدعة

«الجزء الأول»

أحمد عيمر
طالب في مرحلة الدكتوراه في قسم الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

من أعظم المِنَنِ الَّتي امتنَّ الله عز وجل بها على أمَّة الإسلام؛ أن أكمل لها شَرْعَهَا، ورضي لها دينها، ولَم يبق لمستزيد أن يزيد فيه، قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، ومن رحمته بها أيضًا أن جعل بيان معالم هذا الدِّين وتفاصيله لرسوله الكريم ﷺ، قال عزَّ من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44].

فما من خير إلاَّ ودلَّ النَّبيُّ ﷺ أمَّته عليه، وما من شرٍّ إلاَّ وحذَّرها منه إلى أن توفي ﷺ، وقد تركها على المحجَّة البيضاء لا يزيغ عنها إلاَّ هالك، فعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله علينا ﷺ فقال: «**أَيْم اللهِ، لأَتْرُكَنَّكُمْ عَلَى مِثْلِ البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا سَوَاء**»، فقال أبو الدَّرداء رضي الله عنه: صدق الله ورسوله، فقد تركنا على مثل البيضاء»[1].

فأخذ الصَّحابة رضي الله عنهم الدِّين غضًّا طريًّا عن رسول الله ﷺ، يستنُّون بسنَّته، ويهتدون بهديه، ويقتدون بسَمْتِه، فسعدوا بذلك بدينهم في دنياهم وأخراهم، وعاشوا مجتمعين غير متنرِّقين، قائمين بدين الله لا يعرف الخلافُ إليهم طريقًا، إلى أن بدأت بوادر الخلاف تنبت في آخر خلافة ذي النُّورين عثمان رضي الله عنه، وأوَّل خلافة علي رضي الله عنه، فظهرت الخوارج الَّذين كفَّروا جملةً من الصَّحابة، وقتلوا عثمان وعليًّا رضي الله عنهما، ومن بعدهم الرَّوافض الَّذين ادَّعوا نصرة عليٍّ وآل بيت النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ ظهرت القدريَّة في آخر عهد الصَّحابة الَّذين زعموا أنَّ الأمر أُنف، وفي خضم هذه البدع الثَّلاث ظهرت المرجئة في مقابل بدعة الخوارج ـ الَّذين كفَّروا مرتكب الكبيرة ـ، فأتوا ببدعة جديدة شنيعة حيث أخَّروا العمل عن مسمَّى الإيمان.

وهكذا توالت على الأمَّة الإسلاميَّة على مرِّ الأيَّام البدعُ والمحدثاتُ، حتَّى غدت السُّنَّة النَّبويَّة غريبة محدثة، والبدعة دينًا مألوفًا متوارثًا، وأصبح مَن اتَّبع السُّنن والآثار يتَّهم بأنَّه جاء بشرع جديد،

(1) رواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (47)، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنة».

وسبيل غير قويم، يُبدِّل دين الآباء والأجداد، ويُسفِّه العادات والمألوفات، وهذا مصداق حديث النبيِّ المصطفى ﷺ: «**بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»[2].

لكن من رحمة الله بهذه الأمَّة أن تكفَّل بحفظ هذا الدِّين، فقال تقدَّس في علاه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩**﴾ [الحجر: 9]، فجعل سبحانه في هذه الأمَّة غرسًا؛ ينبت منه رجالٌ عدولٌ فحولٌ، ينفون عنه انتحال المبطلين، وتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، فلَم يَخْلُ قرنٌ بعد القرون الثَّلاثة المفضَّلة من علماءَ ربَّانيِّين يُجدِّدون لهذه الأمَّة أمر دينها، ويعودون بها إلى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنَّة نبيِّه ﷺ على نهج سلف الأمَّة، ونبذ ما يضادُّ ذلك من البدع والأهواء.

وقد كان للإمام مالك رحمه الله وتلاميذه من بعده ومن انتسب من أهل العلم إلى مذهبه قدرٌ وافرٌ من هذا النُّصح والتَّوجيه، والبيان والتَّعليم، حيث تظافرت عنهم نصوص عديدة في ضرورة التزام الكتاب والسُّنَّة، واتِّباع فهم السَّلف الصَّالح لهما، والبُعْدِ الشَّديد عمَّا أحدث من انحرافات عقديَّة، وتعبُّدات بدعيَّة، كما أنَّهم حذَّروا - رحمهم الله - من مجالسة من كان متلبِّسًا بمثل هذه المحدثات والمنكرات ليعلم الجاهل خطرها ويرتدع عنها من قارفها.

(2) رواه مسلم (145).

ولبيان هذه الجهود المباركة جعلت دراستي لها في مطلبين، هما على النَّحو التَّالي:

المطلب الأوَّل:

ذكر ما ورد عن الإمام مالك رحمه الله وبعض علماء المالكيَّة بالمغرب في التَّمسُّك بالسُّنَّة وفهم السَّلف.

من أصول الإمام مالك رحمه الله التَّمسُّك بالوَحْيَيْنِ الشَّريفين، قال عبد الله بن وهب رحمه الله: «سمعت مالك بن أنس رحمه الله يقول: «الزم ما قاله رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع: «**أَمْرَانِ تَرَكْتُهُمَا فِيكُمْ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ** ﷺ»[3]»[4]، وعنه أيضًا قال: قال لي مالك:

(3) رواه اللالكائي بمعناه في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (1/ 88 - 89)، والحاكم في «المستدرك» (1/ 93) من رواية أبي هريرة وفي إسناده صالح بن موسى، قال فيه البخاري: «منكر الحديث»، وقال يحيى بن معين: «ليس بشيء ولا يكتب حديثه»، انظر: «الكامل» (4/ 1386).

وللحديث شاهد آخر رواه الحاكم في «المستدرك» (1/ 93) من طريق أبي أويس عن ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا، في خطبة النَّبيِّ ﷺ في حجَّة الوداع، وفيه ذكر الاعتصام بالسُّنَّة، وقال الحاكم: «قد احتجَّ البخاري بأحاديث عكرمة واحتجَّ مسلم بأبي أويس، وسائر رواته متَّفق عليهم»، زاد الذَّهبيُّ: «وله أصل في الصحيح»، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (40).

(4) رواه ابن حزم في «الإحكام» (8/ 513)، وذكره ابن القيِّم في «إعلام الموقعين» (1/ 256)، والفلاني في «إيقاظ همم أولي الأبصار» (ص253).

«الحُكْمُ الَّذي يُحْكَمُ به بين النَّاس حكمان: ما في كتاب الله، أو ما أَحْكَمَتْهُ السُّنَّة، فذلك الحكم الواجب، وذلك الصَّواب، والحكم الَّذي يجتهد فيه العالم رأيه فلعلَّه يوفَّق، وثالث متكلّف فما أحراه ألاَّ يوفَّقَ»[5]، ولذلك كان شديد التَّمسُّك بالكتاب، كثير النَّهل منه، قال خالد بن نزار الأيلي رحمه الله قائلاً: «ما رأيت أحدًا أنزع بكتاب الله عز وجل من مالك بن أنس»[6].

بل وحثَّ رحمه الله أصحابه على التَّمسُّك بهما، وإن خالف ذلك اجتهاده رحمه الله، قال معن بن عيسى: سمعت مالك بن أنس يقول: «إنَّما أنا بشرٌ أخطىءُ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكلُّ ما وافق الكتاب والسُّنَّة فخذوا به، وكلُّ ما لم يوافق الكتاب والسُّنَّة فاتركوه»[7]، وقال أيضًا: «ليس أحدٌ بعد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلاَّ يؤخذ من قوله ويترك إلاَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم»[8]، فبيَّن رحمه الله أن ليس لأحد بعد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الادِّعاء بأنَّ اجتهاده ورأيه حجَّة على الخَلْقِ، بل الحجَّة في الكتاب والسُّنَّة لا غير.

وكان رحمه الله وقَّافًا عند حدود الكتاب والسُّنَّة؛ لا يتعدَّاهما في أدنى أمرٍ وإن بدا فيه خير وأنَّه يسير، فعن الزُّبير بن بكار[9] قال: «سمعت سفيان بن عيينة يقول: سمعت مالك بن أنس وأتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله! من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إنِّي أريد أن أُحْرِمَ من المسجد من عند القبر - يعني قبر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم - قال: لا تفعل فإنِّي أخشى عليك الفتنة، قال: وأيُّ فتنةٍ في هذا؟ إنَّما هي أميال أزيدها، قال: وأيُّ فتنة أعظم من أن ترى أنَّك سبقت إلى فضيلة قصَّر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنِّي سمعت الله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: 63]»[10].

قال الشَّاطبيُّ رحمه الله: «فأنت ترى أنَّه خَشِيَ عليه الفتنةَ في الإحرام من موضع فاضلٍ لا بقعة أشرف منه، وهو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموضع قبره، لكنَّه أَبْعَدُ من الميقات، فهو زيادة في التَّعبُّد قصدًا لرضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فبيَّن أنَّ ما استسهله من ذلك الأمر اليسير في بادي الرَّأي يخاف على صاحبه الفتنة في الدُّنيا والعذاب في الآخرة واستدلَّ بالآية، فكلُّ ما كان مثل

(5) رواه ابن عبد البرِّ في «الجامع» (1/757).

(6) رواه ابن أبي حاتم في «الجرح والتَّعديل» (1/18)، وذكره المالكي في «رياض النُّفوس» (1/281).

(7) رواه ابن عبد البرِّ في «الجامع» (1/775).

(8) صحَّحه ابن عبد الهادي في «إرشاد السَّالك» (ق227)، ورواه ابن عبد البرِّ في «الجامع» (2/926) عن مجاهد والحكم ابن عتيبة، وانظر: «صفة صلاة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم» للألباني (ص49).

(9) هو الزُّبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي المدني، أبو عبد الله، قاضي مكَّة، قال الخطيب: «كان ثقة ثبتًا، عالمًا بالنَّسب، عارفا بأخبار المتقدِّمين ومآثر الماضين»، مات سنة (256هـ)، وقد بلغ 84 سنة، انظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (3/585)، و«تاريخ بغداد» (8/467)، «تهذيب التهذيب» (2/184).

(10) أخرجه ابن العربي في «أحكام القرآن» (3/1412 - 1413).

ذلك؛ داخل عند مالك في معنى الآية[11]».

وكان رحمه الله داعيةً إلى التَّمسُّك بهدي من سبقه من السَّلف، وما بيَّنوه من العقائد، وفسَّروه من الآيات، واستنبطوه من الأحكام، فقال: «والتَّسليمُ للسُّنن، لا تعارضُ برأيٍ ولا تُدَافَعُ بقياسٍ، وما تأوَّله السَّلف الصَّالح تأوَّلْناه، وما عَمِلُوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويَسَعُنَا أنْ نُمْسِكَ عمَّا أمسكوا، ونتَّبعهم فيما بيَّنوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج عن جماعتهم فيما اختلفوا فيه أو في تأويله»[12].

وكان كثيرًا ما يذكر قول الخليفة عمر ابن عبد العزيز رحمه الله، ويرتجُّ له سرورًا إذا حدَّث به، فعن مطرف بن عبد الله[13] قال: سمعت مالك بن أنس إذا ذُكِرَ عنده الزَّائغون في الدِّين يقول: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «سَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاةُ الأمر بعده سننًا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله عز وجل، واستكمال لطاعته، وقوَّة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النَّظر في رأي من خالفها، فمن اقتدى بما سنُّوا اهتدى، ومن استبصر بها أبصر، ومن خالفها واتَّبع غير سبيل المؤمنين ولاَّه الله عز وجل ما تولاَّه، وأصلاه جهنَّم وساءت مصيرًا»[14].

وممَّا كان يتمثَّل به من قول الشَّاعر:

وخير الأمور ما كان سنَّة

وشرُّ الأمور المحدثات البدائع

ولقد اتَّبع أصحاب مالك ومن نهج نهجهم من علماء المالكيَّة من بعدهم هذا المسلك، واستمسكوا به وأوصوا به في خطبهم ومواعظهم وكتاباتهم، وكان هو المنجي لهم بعد الله عز وجل من تلك البدع الَّتي حلَّت ببلاد المغرب من خارجيَّة واعتزاليَّة ورافضيَّة.

فممَّا أُثِرَ عنهم في التَّمسُّك بالسُّنَّة وهدي السَّلف والدَّعوة إليهما ما ورد عن البهلول ابن راشد[15] رحمه الله (ت183هـ)، أحد أئمَّة المالكيَّة بالمغرب الذَّابِّين عن حياض السُّنَّة، وكان كثيرًا

(11) انظر: «الاعتصام» للشاطبي (2/367 ـ 368).

(12) كتاب «الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ» لابن أبي زيد القيرواني (ص117).

(13) هو مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان بن يسار الهلالي، ابن أخت مالك، كان مقدَّمًا في العلم والفقه، قال عنه أحمد: «كانوا يقدِّمونه على أصحاب مالك»، وقال ابن فرحون: «صحب مالكًا سبع عشرة سنة»، وتوفي سنة (220هـ)، وسنُّه بضع وثمانون سنة، انظر ترجمته في «ترتيب المدارك» (3/133)، «المقتنى في سرد الكنى» (2/79)، «تهذيب التهذيب» (5/457)، «الديباج المذهب» (2/340).

(14) رواه عبد الله في «السُّنَّة» (766)، واللاَّلكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (134).

(15) هو أبو عمرو البهلول بن راشد الحجري الرعيني، من أهل القيروان، كان ثقةً مجتهدًا، وَرِعًا، مستجابَ الدَّعوة، وكان ذا علمٍ كثيرٍ، سمع من مالك والثَّوري، واللَّيث، وغيرهم، له ديوان في الفقه أطال أبو العرب في الثَّناء عليه، توفي رحمه الله سنة (183هـ)، انظر ترجمته في «طبقات علماء إفريقية» لأبي العرب (ص52 ـ 61)، «رياض النُّفوس» (1/200 ـ 214)، «ترتيب المدارك» (3/87 ـ 101)، «الديباج المذهب» (1/315 ـ 316).

ما يُسمع يقول: «السُّنَّة السُّنَّة» ويلحُّ بها[16]، يريد رحمه الله دعوة غيره للتَّمسُّك بالسُّنَّة، والعضِّ عليها كما وردت بذلك الآثار.

ومنهم عون بن يوسف الخزاعي[17] (ت239هـ)، وكان رجلاً صالحًا ثقةً مأمونًا، شديدًا على أهل البدع، قائمًا بالسُّنَّة، وممَّا أُثِرَ عنه في ذلك ما نقله عنه المالكيُّ في الدَّعوة إلى التَّمسُّك بها حيث قال: «وكان يقول: لا يبالي من لقي الله عزَّ وجلَّ على الإسلام والسُّنَّة على أيِّ جنب لقي الله تعالى[18]، فقال له ولده: وإن كثرت ذنوبه؟ فقال: نعم، فاسْتَعْظَمْتُ ذلك وتعجَّبت منه، فقال لي: وتلك الذُّنوب كلُّها تدخل في رحمة الله تعالى الَّتي وسعت كلَّ شيء»[19].

وهذا ابن وضَّاح القرطبي[20] (287هـ) أحد أئمَّة الحديث من المالكيَّة بالأندلس معروف بتمسُّكه بالسُّنَّة واتِّباع هدي السَّلف، وممَّا أُثر عنه في ذلك قوله: «فعليكم بالاتِّباع لأئمَّة الهدى المعروفين، فقد قال بعض من مضى: كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من النَّاس كان منكرا عند من مضى، ومتحببٌ إليه بما يُبْغِضُه عليه ومتقرب إليه بما يُبْعِدُه منه، وكل بدعة عليها زينة وبهجة»[21].

ومن ذلك ما ألَّفه ابن أبي زمنين[22] (ت399هـ) بعنوان: «رياض الجنَّة بتخريج أصول السُّنَّة»، عقد فيه بابًا بعنوان: «في الحضِّ على لزوم السُّنَّة واتِّباع الأئمَّة»، وقال على إِثْرِهِ: «اعلم ـ رحمك الله ـ أنَّ السُّنَّة دليل القرآن، وأنَّها لا تدرك بالقياس ولا تؤخذ بالعقول، وإنَّما هي في الاتِّباع للأئمَّة ولما مشى عليه جمهور هذه الأمَّة، وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ أقوامًا أحسن الثَّناء عليهم، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

---

(16) «طبقات أبي العرب» (ص54).

(17) هو الإمام أبو محمد عون بن يوسف الخزاعي، من أهل القيروان، رحل ولم يدرك مالكًا، وسمع من ابن وهب وابن غانم والبهلول وجماعة آخرين، انظر ترجمته في «طبقات أبي العرب» (ص105)، «رياض النُّفوس» (385/1)، «ترتيب المدارك» (89/4).

(18) يريد بذلك رحمه الله أنَّ المتَّبع للسُّنَّة هو على رجاء في حصول مغفرة الذُّنوب له إذا ما تاب منها، أمَّا المبتدع المخالف للسُّنَّة ليس هو على رجاء في التَّوبة ممَّا أحدثه من البدع؛ لأنَّه يحسب نفسه على الهدى، وأنَّى له ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف].

(19) «رياض النُّفوس» (385/1).

(20) هو الإمام أبو محمد عون بن يوسف الخزاعي، من أهل القيروان، رحل ولم يدرك مالكًا وسمع من ابن وهب وابن غانم والبهلول وجماعة آخرين، انظر ترجمته في طبقات أبي العرب (ص105)، رياض النفوس (385/1)، ترتيب المدارك (89/4).

(21) ما جاء في «البدع» (ص92).

(22) هو أبو عبد الله، محمَّد بن عبد الله بن عيسى المرّي الأبيري الأندلسي، المشهور بابن أبي زَمَنِين، كان إمامًا قدوةً زاهدًا، راسخًا في العلم، متفنِّنًا في الآداب، مقتفيًا لآثار السَّلف، له عدَّة مصنَّفات منها: «تفسير القرآن»، «المقرِّب في اختصار المدونة»، «منتخب الأحكام»، وغيرها، انظر ترجمته في «جذوة المقتبس» (ص53)، «السير» (188/17)، مقدمة كتاب «أصول السنة» لعبد الله البخاري (13 ـ 20).

أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: 17 ـ 18]، وأمر عباده فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: 153]»[23].

وتبعه بعد ذلك أبو عَمْرو الدَّاني[24] (ت444هـ) الَّذي نصَّ على عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في كتابه الماتع المسمَّى بـ «الرِّسالة الوافية لمذهب أهل السُّنَّة في الاعتقادات وأصول الدِّيانات»، ذكر في فصل منه الأحاديث الدالَّة على ضرورة لزوم السُّنَّة وجماعة المسلمين ونقل فيه كلمة مالك السَّالفة الذِّكر حيث قال: «ومن قولهم: التَّسليم والانقياد للسُّنَّة، لا تُعارض برأي ولا تدافع بقياس، وما تأوَّله السَّلف الصَّالح تأوَّلناه...»[25].

وله أيضًا كتاب في الفتن سمَّاه «السُّنن الواردة في الفتن وغوائلها والسَّاعة وأشراطها» عقد فيه بابًا: في الاستمساك بالدِّين واللُّزوم على السُّنَّة عند الاختلاف وظهور الفتن[26]، أدرج تحته حديث العرباض بن سارية ليدلَّ غيره رحمه الله على طريق النَّجاة من الفتن بالعضِّ على السُّنَّة ولزومها.

ومن آثاره أيضًا أرجوزة بديعة في التَّمسُّك بالسُّنَّة وهدي السَّلف والإنكار على أهل البدع[27]، أورد الذَّهبي منها سبعةً وثلاثين بيتًا في كتابه «سير أعلام النُّبلاء»، وقال: «وهي أرجوزة طويلة جدًّا»، نذكر منها[28] قوله رحمه الله:

تدري أخي أين طريقُ الجنَّه
طريقها القرآن ثم السُّنَّه
كلاهما ببلد الرَّسول
وموطن الأصحاب خَيرِ جيلِ

وهذا ابن عبد البرِّ رحمه الله (ت463هـ) إمام المالكيَّة بالمغرب في عصره يقرِّر أنَّ السُّنَّة حجَّة على الخلق يجب التَّحاكم إليها، ولا يجوز العدول عنها إلى قول كائن من كان حيث يقول رحمه الله: «ليس أحد من خلق الله إلاَّ وهو يؤخذ من قوله ويترك إلاَّ النَّبي ﷺ؛ فإنَّه لا يترك من قوله إلاَّ ما تركه هو ونسخه قولاً أو عملاً، والحجَّة فيما قال ﷺ وليس في قول غيره حجَّة،

(23) «أصول السنة» لابن أبي زمنين (ص35).

(24) هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان المقرئ، القرطبي ثمَّ الدَّاني، يعرف في زمانه بابن الصَّيْرَفي، مقرئ أحد الأئمَّة في علوم القرآن، وله معرفة تامَّة بالحديث وعلومه، وكان عارفًا باللُّغة والغريب والأدب، مشهورًا بالفضل والدِّراية، انظر ترجمته في «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس» للحميدي (ص286)، «سير أعلام النُّبلاء» للذهبي (18/77)، «الدِّيباج المذهَّب في معرفة أعيان علماء المذهب» لابن فرحون (2/84).

(25) (ص97 ـ 98).

(26) (2/373).

(27) وهي مطبوعة باسم «الأرجوزة المنبهة على أسماء القراء والرواة وأصول القراءات وعقد الديانات بالتجويد والدلالات» (ص172).

(28) انظر: «السير» (18/81).

ومن ترك قول عائشة في رضاع الكبير وفي لبن الفحل، وترك قول ابن عبَّاس في العول والمتعة وغير ذلك من أقاويله... كيف يتوحش من مفارقة واحد منهم ومعه السُّنَّة الثَّابتة عن النَّبيِّ ﷺ وهي الملجأ عند الاختلاف وغير نكير أن يخفى على الصَّاحب والصَّاحبين والثَّلاثة السُّنَّة المأثورة عن رسول الله ﷺ...»[29].

وقال ابن الحاج[30] (ت737هـ) رحمه الله في كتابه «المدخل»: «لا يجوز أن يقلِّد الإنسان في دينه إلاَّ من هو معصوم، وذلك صاحب الشَّريعة ﷺ ليس إلاَّ أو من شهد له صاحب العصمة ﷺ بالخير وهو القرن الأوَّل والثَّاني والثَّالث لقوله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي عضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ...**»[31]»، إلى أن قال: «وانظر إلى حكمة الشَّارع ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ في هذه القرون وكيف خصَّهم بالفضيلة دون غيرهم؛ وإن كان غيرهم من القرون في كثير منهم البركة والخير، لكن اختصَّت تلك القرون بمزيَّة لا يوازيهم فيها غيرهم، وهي أنَّ الله عزَّ وجلَّ خصَّهم لإقامة دينه وإعلاء كلمته...»[32].

وذكر أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد المَقَّري[33] (ت758هـ) في كتابه «القواعد» قاعدتين حثَّ فيهما على حفظ نصوص الكتاب والسُّنَّة، والتَّفقُّه فيهما حيث يقول: «لا يجوز ردّ الأحاديث إلى المذاهب على وجه ينقص من بهجتها، ويذهب بالثِّقة بظاهرها، فإنَّ ذلك إفساد لها وغضٌّ من منزلتها، لا أصلح الله المذاهب بفسادها ولا رفعها بخفض درجاتها، فكلُّ كلام يُؤخذ منه ويردُّ إلاَّ ما صحَّ لنا عن محمَّد ﷺ، بل لا يجوز الردُّ مطلقًا؛ لأنَّ الواجب أن تردَّ المذاهب إليها، كما قال الشَّافعيُّ، لا أن تُرَدَّ هي إلى المذاهب، كما تسامح فيه الحنفيَّة خصوصًا، والنَّاس عمومًا، إذ ظاهرها حجَّة على من خالفه حتَّى يأتيَ بما يقاومه...»[34].

وقال أيضًا رحمه الله: «يكره تكثير الفروض النَّادرة، والاشتغال عن حفظ نصوص الكتاب والسُّنَّة والتَّفقُّه فيهما بحفظ آراء الرِّجال، والاستنباط منها، والبناء عليها، وبتدقيق المباحث، وتقدير النَّوازل، فالمهمُّ المقدّم، وما أضعف حجَّة من يَرِد القيامة وقد أنفق عُمرًا طويلاً في العلم،

(29) «التمهيد» (1/159 ـ 160).

(30) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري المعروف بابن الحاج، الفاسي، المالكي، له تآليف عديدة، توفي سنة (737هـ) بالقاهرة، انظر ترجمته في «الديباج المذهب» (2/321)، «شجرة النور» (218 ـ رقم769).

(31) مضى تخريجه (ص7 في هامش8).

(32) «المدخل» لابن الحاج (1/73).

(33) هو محمَّد بن محمَّد بن أحمد بن أبي بكر، أبو عبد الله القرشي المَقَّري ـ نسبة إلى إحدى قرى بلاد الزَّاب من إفريقية ـ التِّلمساني، نشأ محبًّا للعلم طالبًا له، وله مؤلَّفات جمَّة في مختلف الفنون، توفي في مدينة فاس عام (759هـ)، انظر ترجمته في «نفح الطِّيب» (5/203)، مقدِّمة كتابه «القواعد» (1/53) بقلم أحمد بن عبد الله بن حميد.

(34) «القواعد» لأبي عبد الله محمد بن محمد المقري (القاعدة 148).

فيُسأل عمَّا علم من كتاب الله عزّ وجلّ وسنَّة رسوله ﷺ فلا يوجد عنده أثارة من ذلك، بل يوجد قد ضيَّع فرضًا كثيرًا من فروض العين من العلم بإقباله على حفظ فروع اللِّعان والمأذون وسائر الأبواب النَّادرة الوقوع، وتتبُّع سائر كتب الفقه، مقتصرًا من ذلك على القيل والقال، معرضًا عن الدَّليل والاستدلال، بل الواجب الاشتغال بحفظ الكتاب والسُّنَّة وفهمهما والتَّفقُّه فيهما، والاعتناء بكلٍّ ما يتوقَّف عليه المقصود منهما، فإذا عرضت نازلة عرضها على النُّصوص، فإن وجدها فيها فقد كفي أمرها، وإلاَّ طلبها بالأصول المبنيَّة هي عليها، فقد قيل: إنَّ النَّازلة إذا نزلت أعين المفتي عليها»[35].

وهذا الشَّاطبي (ت790هـ) رحمه الله بعد أن ذكر حاله في أوَّل الطَّلب وما وجده من شدَّةٍ في تحرِّي الحقِّ والصَّواب، فيقول: «إلى أن منَّ عليَّ الرَّبُّ الكريم الرُّؤوف الرَّحيم، فشرح لي من معاني الشَّريعة ما لم يكن في حسابي، وألقى في نفسي إلقاء بصيرة: أنَّ كتاب الله وسنَّة نبيِّه لم يتركا في سبيل الهداية لقائلٍ ما يقول ولا أبقيَا لغيرهما مجالاً يعتدُّ به فيه، وأنَّ الدِّين قد كمل، والسَّعادة الكبرى فيما وضع والطَّلبة فيما شرع، وما سوى ذلك فضلال وبهتان وإفك وخسران، وأنَّ العاقد عليهما بكلتا يديه مستمسك بالعُرْوَة الوثقى محصل لكلية الخير دنيا وأخرى، وما سواهما فأحلام وخيالات وأوهام، وقام لي على صحَّة ذلك البرهان الَّذي لا شبهة تطرق حول حماه ولا ترتمي نحو مرماه، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾ [يوسف: 38]، والحمد لله والشُّكر كثيرًا كما هو أهله»[36].

وقال أيضًا رحمه الله: «...لأنَّ السُّنَّة حجَّة على جميع الأمَّة، وليس عمل أحد من الأمَّة حجَّة على السُّنَّة؛ لأنَّ السُّنَّة ـ معصومة عن الخطأ وصاحبها معصوم، وسائر الأمَّة لم تثبت لهم العصمة إلاَّ مع إجماعهم خاصَّة، وإذا اجتمعوا تضمَّن إجماعهم دليلاً شرعيًّا... فالواجب علينا أن نقف مع الاقتداء بمن يمتنع عليه الخطأ، ونقف عن الاقتداء بمن لا يمتنع عليه الخطأ إذا ظهر في الاقتداء به إشكال، بل نعرض ما جاء عن الأئمَّة على الكتاب والسُّنَّة، فما قبلاه قبلناه، وما لم يقبلاه تركناه»[37].

يتبع...

(35) المصدر نفسه (القاعدة 224).

(36) «الاعتصام» للشَّاطبي (1/13 ـ 14).

(37) «الاعتصام» (1/362، 364).

سبيل السعادتين في اجتناب الجهالتين

الزواوي ملياني
وهران

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على عبده ورسوله الَّذي بلَّغ البلاغ المبين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

لقد تظافرت آيات الله الكونيَّة والشَّرعيَّة على السَّواء، وبلا مراء؛ أنَّ السَّعادتين ـ في الدُّنيا والآخرة ـ مرهونتان باجتناب الجهالتين:

1 ـ جهالة العلم.

2 ـ وجهالة العمل، وما حلَّ بالنَّاس مكروه ولا حصل لهم عَنَتٌ إلاَّ كانت إحداهما سببَه.

فإنَّ النَّوع الإنسانيَّ لا يصلح إلاَّ إذا تجرَّد من الجهل كلِّه.

فإنَّه وإن تقرَّر شرعًا أنَّ فساد الأديان شرٌّ من فساد الأبدان، بل لا قياس لحجم هذا الفساد على حجم ذاك، إلاَّ أنَّ كِلا الفَسَادَيْن مِنْ جرَّاء الجهالتيْن المذكورتين.

ولعلَّك لَمَحت أنِّي لا أعني بالجهل هنا: ما نعرِّف به نقيض العلم فحسب، كما يفهمه من أوَّل إدراك كلُّ أحدٍ؛ ولكن هو جهل العلم وجهل العمل على السَّواء.

جهالة العلم:

لا يزال يكتب الكاتبون في أدب الدُّنيا والدِّين مقالات في ذمِّ الجهل ومدح العلم كالدُّرر، لك أن تستخرج منها مِنْ كنوز النَّصائح ما لو وقع عليه المتنكِّب طريق نجاته، لَعَلِمَ منه سبيل خلاصه.

وإنَّ الله مُذْ أنشأ آدم على وجه هذه البسيطة؛ لم يزل عقلاء ذرِّيَّته ـ أنبياء وعلماء ـ يحذِّرون أُمَمَهم مِنَ الجهل وغوائله، ويرشدونهم إلى العلم وفضائله.

والمرء منذ يصير يَعِي الخيرَ والشَّرَّ؛ تراه يتطلَّب أسباب سعادته طمعًا في تحصيلها، حتَّى تكون سبيله إلى راحة نفسه.

غير أنَّ كثيرًا قد غفلوا عن أنَّ معنى السَّعادة المنشودة والرَّاحة المقصودة على الوجه الَّذي نزل به الوحي وجاء به الشَّرع؛ إنَّما هي في العلم تحصيلاً وإعمالاً.

إنَّ الجهل منجم الباطل، ومنبع الضَّلالة، ومغرس الفتنة، ووكر الشَّرِّ، ومستثار الهوى، ومرسى الشُّبهات، وعرصة الغيِّ، وعشّ الشَّيطان...

ولو أردتَ أن أزيدَك زدتُك، وإنَّما غرضي من تعريفك حدَّه ومعناه؛ أن تبغضه وتتعدَّاه.

ومنشأ تفضيل المتعلِّم على غيره حصل في الملإ الأعلى - قبل أن ينزل به شرع - في أعظم مشهد، وبين يدي أعظم شاهد، وذلك أنَّ الله «سبحانه لَمَّا أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميَّزه عليهم بالعلم؛ فعلَّمه الأسماء كلَّها، ثمَّ عرضهم على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾... [البقرة]، فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصَّه به من العلم»[1].

ومن أحسن ما قيل في الجمع بين فضل العلم وشؤم الجهل:

العلمُ ينهضُ بالخسيسِ إلى العلاَ
والجهلُ يقعدُ بالفتَى المنسوبِ

ولَمَّا علم القوم فضل العلم وأنَّه حبل الله الممدود لكلِّ طالب نجاة؛ قال قائلهم: «حظٌّ من علم أحبُّ إليَّ من حظٍّ من عبادة»[2].

وَقَالَ بشْرٌ الحَافِي رحمه الله - وهو أحد أَعْبَد أهل زمانه -: «لا أَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ عَمَلاً أَفْضَلَ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ وَالحَدِيثِ لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَحَسُنَتْ نِيَّتُهُ فيه».

وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوري رحمه الله: «مَا أَعْلَمُ شَيْئًا يُرَادُ اللَّهُ بِهِ أَفْضَلَ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ».

والْحَظ معنى السَّعادة والنَّجاة في ارتباط العلم بمعنى الحياة، في جميل اقتباس النَّبيِّ ﷺ حين تسميته النَّوم موتًا في بعض كلامه؛ وهو إنَّما سمَّاه كذلك لشبهه به في فقد الحياة.

وأنت لو تمعَّنت لرأيت النَّائم إنَّما زالت منه حياته العلميَّة لا الرُّوحيَّة[3]، ولأجل ذلك ارتفع تكليفه.

وإذا ارتفع العلم وحطَّ الجهل صحَّ تسمية الحدث موتًا بنصِّ القرآن الكريم فقد قال الله سبحانه لنبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: 80]، وهو إنَّما كان يدعو أحياء يروحون ويجيئون.

قال ابن كثير رحمه الله (211/6):

«لا تسمعهم شيئًا ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة، وفي آذانهم وَقْر الكفر».

وفي هذا المعنى قال الشَّاعر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
وأجسامهم قبل القبور قبور

* * *

(1) «مفتاح دار السَّعادة» (52/1).

(2) قاله مطرف بن الشّخير، أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (253/11)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (106).

(3) «لسان العرب»: مادة موت (90/2).

جهالة العمل:

وأمَّا الجهالة الثَّانية: فجهالة العمل.

ومعناها: الفصل بين طلب العلم وبين توظيفه والعمل به.

وهي من أشنع مظاهر الجهل وشرِّها.

فإنَّ فيها خصلتين مذمومتين متلازمتين.

فأمَّا الأولى: فتعطيل الحكمة الَّتي من أجلها كان الحضُّ على طلب العلم والأمر به، ألا وهي طلب العمل به، فإنَّما هو وسيلة والعمل به هو الغاية.

فمن أتعب نفسه في تحصيل الوسائل وأهمل الغايات؛ كان ذلك عند العقلاء من نقصان العقل، وعند الفقهاء من فساد النِّيَّة.

وأمَّا الثَّانية اللاَّزمة: فالتَّشبُّه ببعض شرِّ خلق الله؛ ألا وهم اليهود، فإنَّهم أكثر النَّاس تركًا للعمل عند نزول البيِّنات، أعاذنا الله من أخلاقهم.

ولهذا قال ابن المبارك رحمه الله: «من فسد من علمائنا ففيه شبه باليهود».

نعم؛ العلم في نفسه خصلة محمودة، وحسنة مطلوبة، وعمل صالح، بل هو أفضل القرب بعد أداء ما افترض الله سبحانه على العباد.

فإنَّ فيه صلاحهم، وبه فلاحهم، وهو مبتدأُ كلِّ خير في دين أو دنيا، وقد مرَّ بيان ذلك.

لكنَّ هذا حاصل لمن كانت نيَّته العمل به، وإجراء مقتضاه على الجوارح، قيامًا بحقِّه الشَّرعيِّ المتضمَّن في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: 19].

فإنَّ الله ـ سبحانه ـ طلب الاستغفار من الخطايا؛ وهو عمل، مقرونًا مع الأمر بطلب العلم؛ لتعلم أنَّ صلاح العمل من صلاح العلم، وصحَّته من صحَّته، وأنَّ ترك العمل جهل أيضًا، إذ العلم ما أورث الخشية، وحضَّ على العمل وطلب البراءة.

يبيِّن هذا كلَّه: تفسير السَّلف الصَّالح رضي الله عنهم للجهالة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: 17] بأنَّ كلَّ من عصى الله تعالى فهو جاهل.

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «قال مجاهد وغير واحد: كلُّ مَنْ عصى الله خطأً أو عمدًا فهو جاهل، حتَّى ينزع عن الذنب»[4].

وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (119)﴾: «إنّ ربّك للذين عصوا الله **فجهلوا بركوبهم ما ركبوا من معصية الله** وسفهوا بذلك...»[5].

ولهذا قال ابن القيِّم رحمه الله تحت آية النِّساء: «والجهالة ههنا؛ **جهالة العمل**، وإن كان عالمًا

(4) «تفسير ابن كثير» (2/235).

(5) «تفسير ابن جرير» (17/316).

بالتَّحريم...»[6].

وقال رحمه الله في موضع آخر في الكلام على قوله تعالى ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: 50]: «فالفرار المذكور: هو الفرار من الجهلين؛ من الجهل بالعلم إلى تحصيله اعتقادًا ومعرفةً وبصيرةً، ومن **جهل العمل** إلى السَّعي النَّافع والعمل الصَّالح؛ قصدًا وسعيًا»[7].

ومن عظيم فوائد هذا الفرار إلى العمل؛ ما يمدُّ اللَّه به العبد من السَّداد والإصابة في بعض ما يُلجأ إليه أحيانًا من التَّوقيع عنه سبحانه.

فلقد وعد اللَّهُ الصَّالحَ من أهل العلم أن يلهمه رشده أحوج ما يكون إليه؛ وذلك بإطلاعه على الفرق بين الحقِّ والباطل والهدى والضَّلال، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: 29]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: 17].

ولهذا «نُقِلَ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ:

مَنْ نَسْأَلُ بَعْدَكَ؟

فَقَالَ عَبْد الوَهَّابِ، يَعْنِي: الوَرَّاقَ.

فَقِيلَ: إِنَّهُ ضَيِّقُ العِلْمِ.

فَقَالَ: رَجُلٌ صَالِحٌ مِثْلُهُ يُوَفَّقُ لِإِصَابَةِ الحَقِّ»[8].

* * *

أختم وأقول:

أنا أعلم أنَّه قد كتب في فضل العلم والعمل من هو أفصح لسانًا وأعذب بيانًا؛ وإنَّما نحن في جنبهم وجنب من نكتب لهم كقول الشَّاعر:

وتراه يُصغي للحديث بسَمْعه ... وبقلبه ولعلَّه أدرَى به



(6) «مدارج السَّالكين» (1/284).

(7) «مدارج السَّالكين» (1/284).

(8) «الآداب الشَّرعيَّة» (2/114).



مطلع البدر
في فضل من حضر[1] معركة بدر

محمد بن خدة
إمام خطيب. تيبازة

الحمد لله الّذي خلق الشّمس والقمر واللّيل والنّهار، وسخّر الفلك لتجري في البحر وسخّر الأنهار، وجعل للقمر منازل فتعاقب عليها واستدار، حتّى صار كالبدر واستنار، والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمة للعالمين وحجّة على الخلق أجمعين، فدعا العرب والعجم وجاهد في الله حقّ جهاده حتّى ظهر الأمر، وعلى آله وأصحابه الّذين أبلوا في الله بلاء حسنًا يوم بدر، فكانت لهم المآثر العظيمة، والفضائل الجسيمة، وعلى سائر الصّحب الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد:

فلا يكاد أحد من المسلمين يجهل معركة بدر الّتي كانت في مهد وصدر دولة الإسلام ـ الّتي أرسى النّبيُّ ﷺ معالمها في مدينته طابة الطّيّبة ـ وهي غزوة مشهورة تناولتها كتب السّيرة بتفصيل أحداثها، وبيان ما وقع فيها.

وقد ورد في فضل الصّحابة الّذين شهدوا بدرًا أحاديث كثيرة منها:

1 ـ ما رواه البخاري (3982) من حديث أنس رضي الله عنه قال: «أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمُّه إلى النَّبيِّ ﷺ فقالت: يا رسول الله! قد عرفتَ منزلة حارثة منِّي، فإن يكن في الجنَّة أصبرْ وأحتسبْ، وإن تكن الأخرى ترَ ما أصنع، فقال: «**وَيْحَكِ ـ أَوَ هَبِلْتِ أَوَ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ**»».

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «البداية والنِّهاية» (3/324) ـ بعد أن ذكر هذا الحديث ـ:

«وقد روي من غير هذا الوجه من حديث ثابت وقتادة عن أنس وأنَّ حارثة كان في النَّظارة وفيه: «**أنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»».

وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر؛ فإنَّ هذا الّذي لم يكن في بحيحة القتال، ولا في حومة الوغى، بل كان من النظارة من بعيد، وإنّما أصابه سهم غرب، وهو يشرب من الحوض، ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس الّتي هي أعلى الجنان، وأوسط الجنّة، ومنه تفجّر أنهار الجنّة، الّتي أمر الشّارع أمّته إذا سألوا الله الجنّة، أن يسألوه إيّاها.

(1) كان من المقرَّر سرد أسمائهم إلاَّ أنَّ ذلك يطول ذكره، ولذلك اقتصرت على بيان فضل أهل بدر وفائدة معرفتهم.

فإذا كان هذا حال هذا، فما بالك بمن كان واقفًا في نَحْرِ العدوِّ، وعدوّهم على ثلاثة أضعافهم عَدَدًا وعُدَدًا...».

2 ـ ومنها ما رواه البخاري (3983)، ومسلم (2494) من حديث عليٍّ رضي الله عنه في قصَّة حاطب ابن أبي بلتعة، وبعثه الكتاب إلى أهل مكَّة عام الفَتْح، وأنَّ عمرَ استأذنَ رسولَ الله ﷺ في ضرب عنقه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟!**»، قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمنًا بالله ورسوله ﷺ، أردت أن تكون لي عند القوم يدٌ يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلاَّ له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**صَدَقَ، وَلاَ تَقُولُوا لَهُ إلاَّ خَيْرًا**»، فقال عمر: إنَّه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؛ فدعني فلأضربَ عنقَه، فقال: «**أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟**»، فقال: «**لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ؛ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ ـ أو قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ ـ**»، فدمعت عَيْنَا عمرَ، وقال: الله ورسوله أعلم.

وفي رواية لمسلم (2495) من حديث جابر رضي الله عنه أن عبدًا لحاطبٍ جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطبًا فقال: يا رسول الله! ليدخلنَّ حاطب النَّار، فقال رسول الله ﷺ: «**كَذَبْتَ لا يدخلها؛ فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالحُدَيْبِيةَ**»، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح» (375/7): «والمراد منه الاستدلال على فضل أهل بدر بقوله ﷺ المذكور، وهي بشارة عظيمة لم تقع لغيرهم، ووقع الخبر بألفاظ، منها: «**فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، ومنها: «**فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ**»، ومنها: «**لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ**»، لكن قال العلماء: إنَّ التَّرجِّي في كلام الله وكلام رسوله للوقوع، وعند أحمد وأبي داود وابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بالجزم، ولفظه: «**إِنَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ؛ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، وعند أحمد بإسناد على شرط مسلم من حديث جابر مرفوعا: «**لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا**»».

أمَّا قوله: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ...**»، فقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله كلام العلماء في توجيهه:

ـ أنَّه إخبار عن الماضي؛ أي كلُّ عملٍ كان لكم؛ فهو مغفور، بدليل لو كان لما يستقبلونه أنه من العمل لم يقع بلفظ الماضي، وقال: فسأغفر لكم، لكن أجيب عنه: لو كان كذلك لَمَا حسن الاستدلال به في قصَّة حاطب؛ لأنَّها وقعت بعد بدر بستِّ سنين، وجاء الحديث بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه.

وقيل: إنَّ صيغة الأمر في «اعملوا» للتَّشريف والتَّكريم، والمراد عدم المؤاخذة بما يصدر منهم بعد ذلك، وخصُّوا بهذا لِمَا حصل لهم من الحال العظيمة التي اقتضت محو ذنوبهم السَّابقة ومغفرة الذُّنوب اللاَّحقة إن وقعت.

وقيل: المراد ذنوبهم إذا وقعت وقعت مغفورة.

وقيل: هي بشارة بعدم وقوع الذُّنوب منهم، وفيه نظرٌ ظاهر.

ثمَّ قال الحافظ رحمه الله: «والَّذي يفهم من سياق القصَّة الاحتمال الثَّاني، وهو الَّذي فهمه أبو

عبد الرَّحمن السُّلمي التَّابعي الكبير...».

ومراده بالاحتمال الثَّاني: هو عدم مؤاخذتهم، فتمحى ذنوبهم السَّابقة وتغفر اللاَّحقة إذا وقعت منهم، وهو اختيار الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح الواسطية» (2/259 ـ 260) حيث قال: «فأهل بدر الَّذين جعل على أيديهم هذا النَّسر المبين والفرقان الَّذي هاب العربُ به رسولَ الله ﷺ وأصحابه، وكان لهم منزلة عظيمة بعد هذا النَّصر، اطَّلع الله عليهم، وقال: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، فكلُّ ما يقع منهم من ذنوب؛ فإنَّه مغفور لهم بسبب هذه الحسنة العظيمة الكبيرة الَّتي جعلها الله تعالى على أيديهم.

ـ وفي هذا الحديث دليلٌ على أنَّ ما يقع منهم من الكبائر مهما عَظُم، فهو مغفور لهم.

ـ وفيه بشارة بأنَّهم لن يموتوا على الكفر؛ لأنَّهم مغفور لهم وهذا يقتضي أحد أمرين:

إمَّا أنَّهم لا يمكن أن يكفروا بعد ذلك.

وإمَّا أنَّهم إن قُدِّرَ أنَّ أحدهم كَفَرَ، فسيوفَّق للتَّوبة والرُّجوع إلى الإسلام.

وأيًّا كانت؛ فإنَّ فيه بشارة عظيمة لهم، ولم نعلم أنَّ أحدًا منهم كفر بعد ذلك» اهـ.

وللإمام ابن القيِّم رحمه الله كلام ماتع في توجيه هذا الحديث ذكره في كتابه «الفوائد» (ص20 ـ 23) قال: «فائدة قول النَّبيِّ ﷺ لعمر: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ؛ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ؟!**»، أشكل على كثير من النَّاس معناه، فإنَّ ظاهره إباحة كلِّ الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاءوا منها وذلك ممتنع...».

ثمَّ ذكر بعض توجيهات الأئمَّة، وقد سبق نقلها في كلام الحافظ ابن حجر رحمه الله، ثمَّ قال: «فالَّذي نظنُّ في ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّ هذا خطاب لقومٍ قد علِمَ الله سبحانه أنَّهم لا يفارقون دينهم، بل يموتون على الإسلام، وأنَّهم قد يُقارفون بعض ما يُقَارفه غيرهم من الذُّنوب، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرِّين عليها، بل يوفِّقهم لتوبة نصوحٍ واستغفارٍ وحسناتٍ تمحو أثرَ ذلك، ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم؛ لأنَّه قد تحقَّق ذلك فيهم وأنَّهم مغفور لهم، ولا يمنع ذلك كونَ المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم، كما لا يقتضي ذلك أن يعطِّلوا الفرائض وثوقًا بالمغفرة، فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر، لَما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ولا صيام ولا حجٍّ ولا زكاة ولا جهاد! وهذا محالٌ، ومن أوجب الواجبات التَّوبة بعد الذَّنب، فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة، ونظير هذا قوله في الحديث الآخر: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! أَذْنَبْتُ ذَنْبًا، فَاغْفِرْهُ لِي! فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ؛ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي! فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ؛ فَقَالَ: رَبِّ! أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي؛ فَقَالَ اللهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»[2].

فليس في هذا إطلاقٌ وإذنٌ منه سبحانه له

(2) رواه البخاري (7507) ومسلم (2758) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في المحرَّمات والجرائم، وإنَّما يدلُّ على أنَّه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب، واختصاص هذا العبد بهذا ـ لأنَّه قد علم أنَّه لا يصرُّ على ذنب وأنَّه كلَّما أذنب تاب ـ حُكمٌ يعمُّ كلَّ من كانت حالُه حالَه، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قُطع به لأهل بدر، وكذلك كلُّ مَنْ بشَّره رسول الله ﷺ بالجنَّة أو أخبره بأنَّه مغفور له، لم يَفهم منه هو ولا غيرُه من الصَّحابة إطلاق الذُّنوب والمعاصي له ومسامحتَه بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشدَّ اجتهادًا وحذرًا وخوفًا بعد البشارة منهم قبلها، كالعشرة المشهود لهم بالجنَّة، وقد كان الصِّدِّيق شديدَ الحذر والمخافةِ، وكذلك عمرُ، فإنَّهم علموا أنَّ البشارة المطلقة مقيَّدةٌ بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيَّدةٌ بانتفاء موانعها، ولم يفهم أحدٌ منهم من ذلك الإطلاقَ والإذنَ فيما شاءوا من الأعمال».

وروى البخاري (3992) من حديث معاذ ابن رفاعة بن رافع الزُّرَقي عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: «**مَا تَعُدُّون أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟**» قال: من أفضل المسلمين ـ أو كلمة نحوها ـ قال: «**وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ المَلاَئِكَةِ**».

فهذا ممَّا ورد في فضل من شهد بدرًا من الصَّحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ، وقد تقرَّر في عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة التَّرضِّي عن الصَّحابة أجمعين، والشَّهادة لهم بالعدالة لتعديل الله لهم في كتابه ونبيِّه ﷺ في سنَّته، والسُّكوت عمَّا شجر بينهم، وأنَّهم ـ فيما وقع بينهم ـ أحد رجلين: إمَّا مجتهد مصيب له أجران، أو مجتهد مخطئ له أجر واحد، كما قرَّر ذلك علماء أهل السُّنَّة في هذا الباب.

فهذا أصل عامٌّ في الصَّحابة الكرام ﭫ، وهو يُعدُّ حاجزًا مانعًا من الكلام فيهم أو الطَّعن فيهم.

وممَّا يعدُّ كذلك كالحاجز والمانع من الكلام فيهم أو الطَّعن فيهم كون هذا الصَّحابي قد حضر وشهد بدرًا، ولذلك اهتمَّ أئمَّة الحديث والسِّيرة بجمع أسمائهم، ومِنْ ثمَّ أردت جمع أسماء من حضر بدرًا[3].

علمًا أنَّ معرفة ذلك له فوائد كثيرة يمكن إجمالها فيما يلي:

1 ـ العلم بصحابة رسول الله ﷺ.

2 ـ تنزيلهم منزلتهم.

3 ـ يترتَّب على الأمر الثَّاني، أن نُكِنَّ لهم الحبَّ بما يخصُّهم، ويؤيِّد هذا ما ورد في تخصيص أهل بدر بالذِّكر، فإذا جاء ذكر أحدهم في حديثٍ ما يُقال: وكان من أهل بدر.

وفي كتب السُّنَّة جملةٌ من الأحاديث؛ منها ما ذكره البخاري في كتاب المغازي/ باب فضل من شهد بدرًا.

(3) وأسميت هذا الجمع بـ: «مطلع البدر فيمن شهد معركة بدر»، ثمَّ وجدت وأنا أقرأ ترجمة الإمام الزَّبيدي صاحب «تاج العروس» أنَّ له رسالة موسومة بـ: «شرح الصدر في أسماء أهل بدر»، وللشَّيخ الفقيه العلاَّمة عبد الله بن محمَّد بن أحمد ميارة ـ وهو ابن الشَّيخ ميارة المالكي المشهور ـ المتوفَّى سنة (1073هـ) أرجوزة في أهل بدر، ذكرها الشَّيخ محمَّد ابن محمَّد مخلوف في ترجمته له في «شجرة النُّور الزَّكيَّة في طبقات المالكيَّة» (1/309).

وفي جميعها يقول الحافظ أنَّ الغرض من ذكر الحديث قوله: «وكان شهد بدرا»، والإشارة إلى ذلك فيها تنصيص على مكانتهم وعلوِّ منزلتهم ورفعتها، ويؤيِّده كذلك الحديث الَّذي رواه البخاري برقم (4025) أنَّ أمَّ مسطح عثرت؛ فقالت: تعس مِسْطَحٌ، فقالت عائشة: «بئس ما قلتِ تسبين رجلاً شَهِدَ بدرًا»، ويدلُّ لذلك أيضًا ما رواه البخاري (4022) أنَّ عطاء البدريين كان خمسة آلافٍ، خمسة آلاف، وقال عمر: «لأفضِّلنَّهم على مَنْ بعدهم».

وروى البخاري كذلك (4004) أنَّ عليًّا رضي الله عنه كبَّر على سهل بن حُنَيْف فقال: «إنَّه شهد بدرًا»، وذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح» (390/7): أنَّه جاء في رواية أخرى عند أبي نعيم في «المستخرج» والبغوي في «المعجم» والإسماعيلي والبرقاني والحاكم والبخاري في «التاريخ الكبير» بلفظ أنَّه كبَّر عليه خمسًا وفي بعضها ستًّا، زاد في رواية الحاكم: «التفت إلينا؛ فقال: إنَّه من أهل بدر»[4].

قال الحافظ (390/7): «وقول عليٍّ رضي الله عنه: «إنَّه شهد بدرًا» يشير إلى أنَّ لِمَنْ شَهِدَها فضلاً على غيرهم في كلِّ شيء، حتَّى في تكبيرات الجنازة...».

فلئن كان ثبت لهم هذا التَّفضيل الَّذي سبق ذكره في الأحاديث والَّذي أعمله الصَّحابة، ففضَّلهم عمر رضي الله عنه في العطاء وعليٌّ رضي الله عنه في تكبيرات الجنازة، فلا شكَّ أنَّ لهم فضلاً في المحبَّة؛ فلتكن على ذُكْرٍ بذلك أخي المسلم.

4 ـ وكذلك من فوائد معرفتهم سدُّ الباب أمام كلِّ مَنْ يحاول الطَّعن فيهم أو القدح أو الكلام فيهم.

5 ـ كما أنَّ مِن فوائد معرفتهم: تثبيت جانبٍ من أبواب الاعتقاد عند أهل السُّنَّة والجماعة ألا وهو عقيدتهم في الصَّحابة رضي الله عنهم، ومن ذلك ما يتعلَّق بأهل بدر، وإلى ذلك أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال في «العقيدة الواسطيَّة» وهو يقرِّر عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة الفرقة النَّاجية والطَّائفة المنصورة: «ويؤمنون بأنَّ اللَّه قال لأهل بدر، وكانوا ثلاث مئة وبضعة عشر: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»...»[5].

6 ـ لقد طلَّع علينا في هذه الأزمنة الأخيرة من ينقِّب عن أخبارٍ هنا وهناك عن بعض الصَّحابة غير متحرٍّ للصِّحَّة ولا متجرِّد للحقِّ، ولا ملتزمٍ بالإنصاف لا في نفسه ولا في غيره، بَلْهَ فيما ينقله؛ فيجمع من الأخبار الشَّتات، وهو في حقيقة أمره فتات، لا يقوى أن يلتئم ولا أن يثبت وهيهات هيهات، ثمَّ يرتقي من بعد ذلك إلى الطَّعن والقدح...

ولربَّما كان هذا الصَّحابيُّ الَّذي يتكلَّم فيه ممَّن حضر بدرًا، فإثبات كونه بَدْرِيًّا كالصَّفعة في ردِّ قدح هذا الطَّاعن تكفيه، وتردُّ عليه ما خرج من فِيه.

(4) «الفتح» (390/7) وانظر: «أحكام الجنائز» للشَّيخ الألباني رحمه الله (143 ـ 144)، حيث أورد فيه ثلاثة أحاديث على هذا النَّحو ـ أي فيها زيادة التَّكبير على أربع في الصَّلاة على الجنازة لكون الميت بدريًّا ـ.

(5) «العقيدة الواسطية» ـ مع شرح الشَّيخ ابن العثيمين (257/2).

ذم النميمة

عثمان عيسي

إنَّ قوَّة الأمَّة بقوَّة تمسُّك أفرادها بالدِّين الحقِّ، وضعفَها بضعف ذلك، وترك الاستمساك بالدِّين، وعدم العمل بشرائع الإسلام يسبِّب للأمَّة الوهن، ويورثها الذِّلَّة والصَّغار بين سائر الأمم.

وقد ظهرت في المجتمع المسلم ـ وللأسف ـ صور من الانحرافات السُّلوكيَّة، وطائفة من مساوئ الأخلاق ومنكراتها، كادت تشوِّه بهاء الإسلام في الأنظار، وتعكس ـ سلبًا ـ حقيقتَه للأغيار.

لا يخفى على كلِّ ذي عقل سليم، ودين قويم، أنَّ المجتمع الرَّبَّانيِّ إنَّما يقوم على أساس العقيدة السَّنِّيَّة، والمنهج السَّلفيِّ الحقِّ، والأخوَّة الإيمانيَّة الصَّادقة، وهي الوشائج الكبرى الَّتي ينبغي أن يلتقي عليها كلُّ مؤمن، فينتظم في سلكها، يعتصم المسلم في ظلِّها بالكتاب والسُّنَّة، يأتمر بأمرهما وينتهي بنهيهما، يوالي أهل الإسلام والسُّنَّة، ويعادي أهل الكفر والبدعة، ـ أهل الشُّبهات والشَّهوات ـ، يتخلَّق بالأخلاق الفاضلة العالية، ويبتعد عن الخصال الدَّنيئة السَّافلة، قد ملأ قلبَه بالتَّآخي والتَّعاون والإيثار، وصدرَه بالرِّفق والحلم، ونفسَه بالتَّواضع مع إخوانه المؤمنين الأبرار.

هذا، وقد سدَّ الإسلامُ كلَّ الطُّرق المفضية إلى هدم قواعد هذه المحبَّة والرَّحمة، فحرَّم ما مِنْ شأنه أن يصدع هذا البنيان، ويزعزع فيه الأركان، كما بيَّن دينُنا الحنيفُ خيرَ بيان الأمراضَ والأدواءَ الخطيرة الَّتي تعتري سلوكات الإنسان، ممَّا له أكبر الأثر السَّيِّء على الأخلاق والإيمان، ومن هذه العلل السُّلوكيَّة الذَّميمة: **خصلةُ المشي بين النَّاس بالنَّميمة.**

إنَّ النَّميمة في عرف الشَّرع هي: نقل كلام النَّاس بعضهم لبعض بقصد الإفساد، وهي من أربى الرِّبا، ومن الكبائر المحرَّمة، نصَّ على ذلك غير واحد من أهل العلم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَالَ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ هِيَ النَّمِيمَةُ القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**»، وَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ يَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا وَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا**»[1].

ففسَّرها النَّبيُّ ﷺ بالقالة بين النَّاس: أي:

(1) رواه مسلم (2606).

نقل القول بينهم، فإنْ كان صادقًا فهي نميمة فحسْب، وإن كان كاذبًا فهي بهتان ونميمة.

وهذا كلُّه فيما ليس فيه مصلحة شرعيَّة، وكان على جهة الإفساد.

أمَّا إن دعت الحاجة إلى نقل الكلام على جهة الإصلاح، فلا مانع من ذلك، بل قد يكون بعضه مستحبًّا أو واجبًا، والله أعلم.

ومن دقَّة فقه الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رحمه الله أنْ ذكر هذا الحديث في كتابه الفذِّ «كتاب التَّوحيد» تحت باب: **بيان شيء من أنواع السِّحر**، وذلك إشارةً منه رحمه الله إلى شَبَه النَّميمة بالسِّحر (الحسِّي) من حيث أثرُها في التَّفريق بين الأحبَّة، حتَّى غدت أصلَ كلِّ عداء، وداءَ كلِّ إخاء، فهي تقلب المودَّة عداوة، والصِّلَةَ قطيعة، شأنُها في ذلك شأنَ السِّحر، بل هي أشدُّ تأثيرًا منه وأبلغ، ورحم الله يحي بنَ أبي كثير حيث قال: «يفسد النمّام في ساعة ما لا يفسده الساحر في شهر»[2].

وقد جاء تحريمُ النَّميمة في كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنَّة نبيِّه ﷺ:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم].

والهمَّاز هو: العيَّاب الطَّعَّان المغتاب.

والمشاء بنميم: هو السَّاعي بين النَّاس بالإفساد، والسَّائر بينهم بالفتنة، يتجشَّم المشقَّة لأجل النَّميمة، فالمبالغة في الكلمتين لقوَّة الصِّفة[3].

(2) «حلية الأولياء» (3/70)، «روضة العقلاء» (ص179)، «مختصر منهاج القاصدين» (؟).

(3) «تفسير التَّحرير والتَّنوير» (29/68). بتصرف وزيادة.

وفي «الصَّحيحين» عَنْ هَمَّامِ بنِ الحَارِثِ قَالَ كُنَّا جُلُوسًا مَعَ حُذَيْفَةَ فِي المَسْجِدِ فَجَاءَ رَجُلٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْنَا، فَقِيلَ لِحُذَيْفَةَ: إِنَّ هَذَا يَرْفَعُ إِلى السُّلْطَانِ أَشْيَاءَ.

فَقَالَ حُذَيْفَةُ ـ إِرَادَةَ أَنْ يُسْمِعَهُ ـ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[4]، وفي رواية لمسلم[5] «**لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ**».

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**...»[6] الحديث.

إنَّ النَّميمة داءٌ وآفة خبيثة إذا استشرت في أمَّة هدَّمت قواعدها، وقوَّضت بنيانها، وألقت بها في مكان سحيق، تفطِّر أواصر الأخوَّة والمحبَّة، وتنقطع أوصالها وتتبدَّد، وتتلاشى العلاقات الاجتماعيَّة بعد استقرارها، فيخلف التَّباغضُ والتَّدابرُ والشَّحناء، الأخوَّةَ والمودَّةَ والصَّفاءَ.

إنَّ النَّمَّام متخلِّق بكلِّ مكروه، خسيس الطَّبع، دنيء النَّفس قد طمس في نفسه شعلة الحقِّ، فتلبَّس بكلِّ ضعة ونقيصة وقبيح، أورد نفسه قذارة الإثم ووحل المعصية.

إنَّ أشدَّ ما تجد في القتَّات المشَّاء بنميم أن ترى في بعضهم مَن ظاهره سمت المؤمنين الغافلين، وإذا بباطنه حقد المبغضين الشَّانئين، يتظاهر بقصد النُّصح للعباد وهو مسرف في الانتقام لنفسه،

(4) البخاري (6056) ومسلم (105)، واللفظ له.

(5) برقم (105).

(6) **متفق عليه**: البخاري (218) ومسلم (292).

متَّبع لهواه، قد أعياه طلب الرِّفق والحلم، ودفع ما يجد في صدره من حسد ونحوه تجاه إخوانه، فأراح نفسه، وأطفأ نار قلبه، بإرسال لسانه في نقل الأخبار من هذا إلى ذاك، على جهة السِّعاية والوشاية والإفساد، فكان أمره فرطًا، قد نال بسوء فعله، ووضيع صنيعه وبالَ وأوزارَ ما أوقد جمرتَها وأضرم فتيل نارها.

وقريبٌ من هذا في النَّسب ذو الوجهين، الَّذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، تراه إذا واجه المرءَ أسمعه ما يرضيه، وإذا أعرض عنه نهش لحمه وانتهك عرضه وذكر عيبه وكلَّ مكروه فيه، امتهن مهنةَ الشَّيطان فرضيَها لنفسه، وهي مهنة الإفساد بين النَّاس، والايقاع بينهم، حتَّى لا تكاد تعرفه بين الخليقة إلاَّ بذلك، **همُّه التَّزلُّف إلى من يرضيه ولو بسخط ربِّه عليه**، وحلق دينه بيديه، لقد أضرَّ هؤلاء بالمتاحبِّين في جلال الله عَزَّوَجَلَّ، فأفسدوا عليهم مودَّتهم وخلَّتهم، وقطعوا عليهم وصالهم، فكم من أبرياء ذهب ضحيَّتهم، ولم يسلم من شرورهم حتَّى العلماء وطلبة العلم الَّذين يصلحون ولا يفسدون، فكادوا لهم بأنواع من الشَّائعات والنُّقولات المختلقة المكذوبة، فهم شرار الخلق كما أخبر الصَّادق المصدوق ﷺ فقال: «...**وَشِرَارُ عِبَادِ اللهِ المَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ البَاغُونَ البُرَآءَ العَنَتَ**»[7].

وكما يعظم إثم النَّمام إذا كانت النَّميمة في الأوقات الفاضلة شرعًا كرمضان، والأماكن المباركة كالحرمين الشَّريفين، ومساجد الله عَزَّوَجَلَّ، فكذلك يعظم إثمها إذا كانت للايقاع بين أهل العلم والصَّلاح بترصُّد هفوات لسانهم وزلاَّتهم، وتتبُّع عثراتهم ثمَّ نقلها من هذا إلى ذاك، كما نبَّه على ذلك العلماء.

قال الشَّيخ ابن العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأعظم النَّميمة أن ينم الإنسان بين علماء الشَّرع، فينقل عن هذا العالم إلى هذا العالم الكلام بينهما ليفسد بينهما، ولاسيما إن كان كذبًا؛ فإنَّه يجمع بين النَّميمة والكذب... فإنَّ هذا من كبائر الذُّنوب، وفيه مفسدة عظيمة، وإيقاع للعداوة بين العلماء، فيحصل في ذلك تفكُّك في المجتمع تبعًا لتفكُّك علمائهم...»[8]اهـ.

إنَّ الاتِّصاف بهذه الخصلة الشَّنيعة ينبئ عن نفسيَّة مريضة عليلة، لا تجد راحتها إلاَّ في إيذاء المؤمنين والمؤمنات، فيَأْلَمُون إذا رأووا الودَّ والتَّآخي بين المؤمنين، والمحبَّة والتَّقدير والاحترام والتَّعاون على الخير والتَّناصح فيه بين أهل العلم وطلبته، وغير ذلك من الأخلاق الإيمانيَّة الَّتي يقوم عليها المجتمع المسلم، إذا رأى هؤلاء القتَّاتون المشَّاؤون بالنَّميمة ذلك عضُّوا على أناملهم من الغيظ، ولسانُ حال الواحد منهم يقول: لا يهدأ لي بال حتَّى أفسد ذات بينهم، وأشتِّت شملهم! قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب]، فكفى هذا الصِّنفَ من أهل الفساد والإفساد وعيدًا

(7) **حديث حسن**: رواه أحمد في «المسند» (17998)، وانظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (2824).

(8) «فتاوى نور على الدرب» (؟).

قوله ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ»[9].

إنَّ طيب معدن المرء يأبى عليه هذه الخصلة الشَّنيعة وسائر الخصال الذَّميمة، فلا ترى المؤمن الحقَّ، يحوم حول هذا الفعل القبيح، لا من قريب ولا من بعيد، لا تصريحًا ولا إيماءً، فلا يكون سببًا في نقل الكلام على سبيل الإفساد أبدًا، ـ بغضِّ النَّظر عن قصده فيه ـ وهذا أمرٌ أرى ضرورة التَّنبيه عليه؛ لأنَّه ابتلي أقوام بنقل الحديث كما ابتلي آخرون بالاستماع إليه، وهذا عيبٌ سلوكيٌّ إذا صدر من أهل الفضل، من طلبة العلم ونحوهم؛ لأنَّ في صنيعهم تشبُّهًا بالصِّنف المذموم، فلا ينبغي لكلِّ ذي دين ومروءة وعقل، أن يكون سمَّاعًا لمن ينقل إليه الشَّائعات، فضلاً عن تصديقه أو إقراره على صنيعه، بل ينبغي نصحه وتعليمه وتذكيره وتأديبه، وهذا منهج سلفيٌّ مرسوم، يجب أن يحتذى به عند سماع مثل ذلك، لا يغفل عنه الصَّغير ولا الكبير، ولا يغترُّ طالب العلم بعلمه أو مكانته، فيتَّصف ـ من حيث لا يشعر ـ بهذا الخلُق الدَّنيء، فتراه ينتظر من يأتيه بالأخبار ويزوِّده بها، ثمَّ يتَّكئ عليها في إصدار الأحكام على إخوانه، ممَّن يعلم منهم صحَّة المعتقد وسلامة المنهج، حتَّى غدا من حيث لا يشعر ـ أيضًا ـ حبيس وأسير هذه العادة السَّيِّئة وهي: الاستماع لمن يتقرَّب إليه زلفى برقاب إخوانه من طلبة العلم العاملين، خاصَّة مع ظهور صنف غريب من المتعلِّمين (زعموا) من الهاذين الهاذرين الَّذين امتهنوا الوشاية بين الدُّعاة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قصدَ التَّقرُّب إلى الشَّيخ الفلاني أو العلاَّني،ـ كمريدي الصُّوفيَّة سواء بسواء ـ ولو على حساب دينهم وشرع ربِّهم عَزَّوَجَلَّ، فطغوا على حقوق غيرهم من الأقران والأنداد، وفي أحيان أخرى تجاوزوهم إلى التَّضحية بالمشايخ أنفسهم، لا لشيء إلاَّ الحظوة عند الشَّيخ المحكي له والأثرة به، ـ ولو على جهة الإفساد ـ!

فينبغي للكيِّس الفطن أن يقطع الطَّريق ويسدَّ ذريعة السُّعاة والوشاة، حتَّى يكبت غيظهم في صدورهم، ويردَّ كيدَهم عليهم، مستحضرًا مقولة الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ: «من نمَّ لك نمَّ عليك».

والْحَظْ قولَه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ [القلم] في الآية الكريمة، تنبئك عن أدبٍ عظيم في التَّعامل مع هذا الصِّنف من النَّاس، وهو عدم الاستماع لهم، أو طاعتهم فيما يقولون وينقلون، فلا يكون المرء ـ فضلاً عن طالب العلم ـ لهم أُذُنًا، يقذفون في قلبه ما يوغرون به صدره على إخوانه، بل وخاصَّة أصحابه! لأنَّه ليس أضرّ على الأمَّة الإسلاميَّة ـ بعد الشِّرك والبدع والمعاصي ـ من تفكُّك أواصر الأخوَّة والمحبَّة والمودَّة بين أفرادها، فإنَّ هذه لإحدى المهلكات الموبقات.

وإنَّ من عدل الله عَزَّوَجَلَّ مع هؤلاء المشَّائين بنميم، الَّذين يرضون الخلق بسخط الخالق جل وعلا، أنَّه يعاجلهم بالعقوبة ليذوقوا وبال ما صنعوا، وإنَّما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح السَّاحر حيث أتى، إذ لا أغير من الله عَزَّوَجَلَّ، فيقذف في قلوب من نمُّوا إليهم بغضَهم وكرهَهم لهم ولو بعد حين، جزاءً على سوء صنيعهم، وجرم فعلهم،

(9) سبق تخريجه.

فما عُرف أحد بين النَّاس بالنَّميمة إلاَّ وكانت نهايتُه في خسران وتباب - إلاَّ من أصلح وتاب - ، قد نبذه المحكي له بالعراء بعد أن كان بالقرب منه مغرورًا، وأبعده عنه فصار قاعدًا لوحده ملومًا محسورًا، كلَّما رآه من كان بالأمس يفرح بخبره؛ ضاق صدره، وارتفع ضغطه، واسودَّ وجهه، وجاس منه خيفةً أن يأتيه بما ينكِّد عليه صفاءه وسريرته!

ذكَّرت بهذا؛ لأنَّ الإنصاف عزيز وقويم، وأكثر النَّاس يقول: أنا به زعيم! وسلامة القصد، وحسن السَّريرة محلُّهما القلب، لكن الأعمال الظَّاهرة أمَارة عليهما، **ولهذا كان التَّثبُّت والتَّأنِّي مطلوبين لكلِّ من أقدم على تعامل مع الأخبار، أو تواصل مع الأخيار**، فلا يخوض في مجالسه الخاصَّة والعامَّة دون حيطة وحذر لعلَّه يصيب أحدًا من إخوانه الصَّادقين في مقتل، فيعود على نفسه بالحسرة والنَّدامة من سوء تسرُّعه في القول أو الفعل: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات].

إنَّ النَّميمة كغيرها من الأمراض الاجتماعيَّة لها أسباب عدَّة ظاهرة وخفيَّة، مدارُها حول «**إرادة السُّوء للمحكيِّ عنه أو إظهار الحبِّ للمحكيِّ له أو التَّفرُّج بالحديث والخوض في الفضول والباطل...**»، وكلُّ واحد منها يحتاج إلى بسط لا يتَّسع له المقام، ولا يكفي لتحليلها سطور في مقال، ولكن تكفي المؤمنَ الموفَّقَ هذه الاشارات لإدراكه عظم المأمورات، وخطر شأن المحرَّمات، وما لكلِّ واحد منهما من أثر على حياة الأفراد والمجتمعات، وهو كاف - إن شاء الله تعالى - لقطع دابر هذا الدَّاء القاتل، في العاجل والآجل.

وينبغي إبعاد واطِّراح هذه الظَّواهر الَّتي تمثِّل عللاً في المجتمع، والكفّ عنها من الجميع، - تطهيرًا له منها - خاصَّة مَن لهم لسان في الأمَّة من حملة الأقلام، من الكتَّاب والصُّحفيِّين، أو الخطباء المفوَّهين، الَّذين يغذُّون - ببعض كتاباتهم وخطاباتهم - الفرقةَ والقطيعة بالقالة الكاذبة، والنَّميمة الجائرة.

إنَّه لا بدَّ للنَّاس من نقلة واعية من المعصية إلى الطَّاعة، ومن الغيِّ إلى الرُّشد، ومن الهوى إلى الاتِّباع، ليحيوا حياة طيِّبة يأمَنُون فيها على أبدانهم وعقولهم وأعراضهم وأموالهم، فإنَّه لم يعد من سبيل إلى بقاء أمَّة من الأمم في الرِّيادة بل ولا في الوجود إذا لم ترجع إلى دينها الحنيف، وأخلاقها الفاضلة، وإنَّ من واجب الجميع - حكَّامًا ومحكومين - إحياء الفضائل، ونبذ كلِّ أنواع الرَّذائل؛ لأنَّ حبَّ الخير وبغض الشَّرِّ، سمة ظاهرة في الإسلام وأهله، لا تنفكُّ عن المجتمع المسلم أبدًا ما كانت الخيريَّة باقية فيهم، يتنظلة الأمَّة، والرُّقيّ بها منوط بالكلِّ، لا يتنصَّل من المساهمة فيه أحدٌ له نصيب وحظٌّ من الذَّوق الإيمانيِّ والوعي الدِّينيِّ، والحسِّ الأخويِّ.

والله الهادي إلى سواء السَّبيل والصِّراط السَّويِّ.



فتاوى شرعية

أ.د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في حكم وضع جهاز اللَّولب داخل رحم المرأة

السُّؤال:

ما حكم استعمال المرأة للولب تقصُّدًا لمنع الحمل؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فاللَّولبُ عبارةٌ عن جهازٍ مصنوعٍ من البلاستيك، يُوضع داخلَ الرَّحم لمنع الحملِ، وهو معدودٌ من وسائلِ منعِ الحملِ المؤقَّتةِ الحديثةِ الَّتي تقابلهَا الوسائلُ المؤقَّتةُ الطَّبيعيَّةُ كالعزلِ والرَّضاعةِ والجماعِ في أوقاتٍ دوريَّةٍ مؤقَّتةٍ.

ولا يخفَى أنَّ تنظيمَ النَّسلِ والتَّباعدَ بين الولاداتِ بَلْهَ تحديدِ النَّسل أمرٌ يُنافي مقاصدَ الشَّريعةِ من تكثيرِ النَّسلِ، وعمارةِ الأرضِ، وتكثيرِ سوادِ المسلمينَ.

وقد وردَ الحضُّ على ذلكَ في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ فقال ﷺ: «**تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ**»[1].

ووردت النُّصوص القرآنيَّة مبيِّنةً أنَّ كثرةَ نسلِ الأمَّةِ سببٌ لعزَّتها وقوَّتها حيثُ امتنَّ الله عزَّ وجلَّ على بني إسرائيلَ بذلكَ فقَال: ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦**﴾ [الإسراء]، وقالَ تعَالى ـ فيمَا قَالَه شعيبٌ عليه السلام لقومِهِ ـ: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ**﴾ [الأعراف: 86].

ولاَ يُعدلُ عَن هذَا الأصلِ المقاصديِّ إلاَّ عندَ تَعذُّرِ تحصيلِه لوجودِ مسوِّغٍ شرعيٍّ.

فإن أضحَت مسوِّغات تنظيمِ النَّسلِ المؤقَّت واضحةً بالظُّهورِ أو بتقريرٍ طبيٍّ يُفصِحُ عن مرضِ المرأةِ أو ضعفِ بدنها أو بتحقُّقِ تضرُّرها بالحملِ أو عجزِها عن تحمُّل الوضعِ حيث يُشكِّل حملُها ـ في الجملةِ ـ خطرًا على النَّفسِ أو ضررًا بالبدنِ، وقد تعذَّر عليهَا تناولُ حبوبِ منعِ الحملِ لعدمِ جدواها أو لتحقُّقِ الآثارِ الجانبيَّةِ

(1) أخرجه أبو داود (2/374)، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (3/158)، من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه بلفظ: «**تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ؛ إِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأَنْبِيَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ**».
والحديث صحَّحه الألباني في «الإرواء» (6/195).

والمخاطرِ الصِّحِّيَّةِ الَّتي لا تتلاءَمُ معَ طبيعةِ بدنِها فيحصلُ لها الضَّررُ مِن جرَّاءِ تناوُلِها[2]؛ فإنَّه يجوزُ ـ والحالُ هذِه ـ اللَّوْلَبُ النُّحَاسِيُّ.

وهُو أولى مِن اللَّوْلَبِ المحتوِي علَى هُرمُونِ الأُنوثةِ «البروجِسْتِرُون».

وقدِ احتَلَّ اللَّولبُ النُّحاسِيُّ هذِه الأَوْلويَّة؛ لأنَّه أَحْوَطُ مِن جَانِبِ مَنْعِه لعمليَّةِ تلقيحِ البويضةِ ابْتِداءً، كَمَا يَعمَلُ منْ جهةٍ أُخْرى عَلَى منعِ تَعشِيشِ البويضةِ إنْ تَعَرَّضَت للتَّلقيحِ.

بيْنَمَا طَرِيقَةُ اللَّولبِ المحتوِي على «البروجسترون»؛ فإنَّه يعملُ على منعِ علوقِ البويضةِ الملَقَّحَةِ في جِدارِ الرَّحِمِ كَيْ لاَ تَتَحَوَّلَ إلى نُطفةٍ وتَنمُو بالأطوارِ المذكورةِ في الآيةِ[3] والحديثِ[4].

(2) وإنَّما تقرَّرت أولويَّة الحبوب؛ لأنَّها تعمل على منع عمليَّة التَّبويض من جهة، واستخدامها يحفظ عورة المرأة المغلَّظة من النَّظر والمسِّ والملامسة ونحو ذلك.

(3) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: 5]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

(4) في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ: بِرِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ». [أخرجه البخاري (2/145)، ومسلم (2643)].

فإنَّ هذه الطَّريقةَ الأخيرةَ تُعدُّ نوعًا مِن الإجهاضِ المبكِّرِ جدًّا، يمنعُه المالكيَّةُ والظَّاهريةُ وبعضُ الشَّافعيَّةِ[5] حيثُ يَروْنَ أنَّ الرَّحِمَ إذَا قَبضَ المنِيَّ لم يَجُز التَّعرُّضُ لَهُ.

علمًا أَنَّ هذِه الوسائلَ المانعةَ من الحملِ لاَ يَجوزُ استخْدَامُها مؤبَّدًا.

فإذَا عَادَتِ المرْأَةُ إلى طبيعتِها وَسلامَةِ بدنِها، أوْ عُوفِيت مِنْ مَرَضِها؛ انْتَفَت بذلكَ مُسَوِّغَات تنظيمِ النَّسْلِ، وَعَادَ الأَصْلُ الأَوَّلُ إلى الحكْمِ؛ عَمَلاً بقاعدةِ: «إِذَا ضَاقَ الأَمْرُ اتَّسَعَ» و«إِذَا اتَّسَعَ ضَاقَ».

في حكم إسقاط الزَّانية حملها قبل نفخ الرُّوح فيه

السُّؤال:

امرأةٌ حاملٌ من الزِّنا تسأل: هل يجوز لها إسقاط حملها قبل نفخ الرُّوح فيه؟

الجواب:

ينبغي التَّفريقُ بين الإجهاض في حدِّ ذاته وبين الإجهاض لوجود مُسوِّغٍ شرعيٍّ.

فأمَّا الإجهاض في ذاته إذا خلا من أيِّ عُذرٍ شرعيٍّ مقبولٍ؛ فهو عملٌ غيرُ مشروعٍ في جميع أطوار

(5) انظر: «القوانين الفقهيَّة» لابن جزي (207)، «المحلَّى» لابن حزم (11/30)، «إحياء علوم الدِّين» للغزالي (2/51).

الجنين ومراحله؛ لأنّه جنايةٌ على موجود حاصل، سواء كان الحمل من نكاحٍ أو من سِفاحٍ.

علمًا أنَّ التَّحريم تزداد شِدَّتُهُ إذا بلغ الجنينُ الطَّورَ الثَّالثَ ونُفِخَ فيه الرُّوحُ، فالعلماء يُجمعون على تحريم الإجهاض بعد مائةٍ وعشرين يومًا مِن بدءِ الحمل قولاً واحدًا، ويُعَدُّ إسقاطه ـ في هذه المرحلة ـ جريمةً موجبةً للدِّية على تفصيلٍ في مقدارها مع وجوب الكفَّارة على الصَّحيح من اجتهاد الفقهاء، وتتمثَّل في صيام شهرين متتابعين بالنَّظر إلى عدم وجود رقبةٍ مؤمنةٍ يعتقها؛ ذلك لأنَّ الإجهاض في هذه الفترة يدخل في عموم النُّصوص القرآنيَّة والحديثيَّة وإجماعِ المسلمين في تحريم إزهاق نفسٍ حرَّم اللهُ قتلها بغير حقٍّ، وعرَّض من فعل ذلك نفسَه لسخط الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء]، وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء]، وفي حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»[6]، وعن أنس ابن مالكٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ، أَوْ قَالَ: وَشَهَادَةُ الزُّورِ**»[7]، وقد أجمع المسلمون على تحريم القتل بغير وجه حقٍّ[8].

أمَّا الطَّوران الأوَّلان ـ وإن كان إثمُ جنايةِ الإسقاطِ بينهما يختلف غِلظةً بحسَب المرحلة الَّتي بلغ إليها الجنين إلاَّ أنَّهما دون الطَّور الثَّالث في شِدَّة الذَّنب والإثم ـ فيُعدُّ الإجهاض فيهما عملاً محرَّمًا، وإذا كان الجنين مُضغةً مخلَّقةً كان ذلك بمثابة الموءودة، والوأدُ جنايةٌ على موجودٍ حاصلٍ يصيرُ مآلاً وبالقوَّة إنسانًا؛ إذ «كُلُّ مَا قَارَبَ الشَّيْءَ يَأْخُذُ حُكْمَهُ».

وضمن هذه الرُّؤية الفقهيَّة المقاصديَّة يقول ابن الجوزي رحمه الله: «لَمَّا كان موضوع النِّكاح لطلب الولد، وليس من كلِّ الماء يكون الولد، فإذا تكوَّن؛ فقد حصل المقصود، فتعمُّد إسقاطه مخالفة لمراد الحكمة، إلاَّ أنَّه إن كان ذلك في أوَّل الحمل فقبل نفخ الرُّوح فيه إثمٌ كبيرٌ؛ لأنَّه مُترَقٍّ إلى الكمال وسارٍ إلى التَّمام إلاَّ أنَّه أقلُّ إثمًا من الَّذي نُفخ فيه الرُّوح، فإذا تعمَّدت إسقاط ما فيه الرُّوح كان كقتل مؤمن، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير]»[9].

وقال ابن جُزَي رحمه الله: «وإذا قَبَضَ الرَّحِمُ المَنِيَّ لم يجزِ التَّعرُّض له، وأشدُّ من ذلك إذا تخلَّق، وأشدُّ من

(6) أخرجه البخاري (6878)، ومسلم (1676)، وأبو داود (4/340)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(7) أخرجه البخاري (3/414)، ومسلم (88)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(8) «المغني» لابن قدامة (7/635).

(9) «أحكام النِّساء» لابن الجوزي (108 ـ 109).

ذلك إذا نُفخ فيه الرُّوح؛ فإنَّه قتل نفسٍ إجماعًا»[10].

هذا؛ وتختلف المسوِّغات الشَّرعيَّة لإسقاط الحمل باختلاف أطوار نموِّ الجنين ومراحل تطوُّره.

فإن كان الحمل في مدَّة الأربعين؛ فإنَّ العذر في إسقاطه يتمحور على دفع ضررٍ حسيٍّ أو نفسيٍّ متحقِّق الوقوع أو متوقَّع غير متوهَّم أو ظنِّيٍّ غالب يلحق أُمَّه بالدَّرجة الأولى.

ومن الأعذار المبيحة لإسقاط الجنين قبل نفخ الرُّوح: العلاج للمرض، أو ضعف بدن المرأة أو عجزها عن تحمُّل الوضع، أو وجود مصلحة شرعيَّة كالسَّفر الطَّويل الشَّاقِّ أو في حالٍ غير آمنةٍ أو كون الولادة تسبِّب إرهاقًا أو تزيد في المرض، وبعبارة أخرى مقتضبة: إن كان الجنين يشكِّل خطرًا على النَّفس وضررًا بالبدن.

وليس من الأعذار في إسقاطه خشية إعالة الولد أو الخوف من تربيته والقيام على رعايته صحيًّا وفكريًّا وأخلاقيًّا ودينيًّا؛ لعدم وجود الكفاية الماليَّة للنُّهوض بتكاليف معيشتهم وتعليمهم، فهذا من المنطق الجاهليِّ الَّذي وُعظوا به بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: 151].

ولحوق العار بالزَّانية الحامل ليس عُذرًا بمفرده في إسقاط الجنين إذا لم تقترن به مصلحة شرعيَّة أو دفع ضرر؛ لأنَّه يباح لمرتكب الزِّنا أن يستر على نفسه كما يباح له أن يراجع القاضي الشَّرعيَّ ويعترف بالزِّنا، وهو محلُّ إجماعٍ مع اختلاف العلماء في الأفضليَّة منهما.

بخلاف المرأة الحامل من نكاح أو سفاح؛ فلا يجوز لها أن تَكْتُمَ حملها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: 228]، والآية وإن وردت في شأن الحامل من الزَّوجات المطلَّقات إلاَّ أنَّ «العِبْرَةَ بعُمُومِ اللَّفْظِ لاَ بخُصُوصِ السَّبَبِ»؛ ذلك لأنَّ أمر الحمل لا يعلم إلاَّ من جهتهنَّ، فردَّ الأمر إليهنَّ وتوعَّدهنَّ فيه لئلاَّ يخبرن بغير الحقِّ، ويؤيِّده حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «**فجَاءَتْ الغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الغَدُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! لِمَ تَرُدُّنِي لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَاللهِ إِنِّي لَحُبْلَى، قَالَ: «إِمَّا لاَ فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، قَالَ: اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللهِ! قَدْ فَطَمْتُهُ وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ بحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: مَهْلاً يَا خَالِدُ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ، ثُمَّ**

(10) «القوانين الفقهيَّة» لابن جزي (207).

أَمَرَ بهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ»[11].

والحديث يحتمل أن يكون حملها ـ حال اعترافها ـ في بداية تكوين الجنين أو في نهايته، وحمله على الطَّور الثَّالث، وإن كان يحرم إسقاطه بالإجماع ـ فيما تقدَّم ـ إلاَّ أنَّه يحتاج في تعيينه إلى دليل مبيِّن، فضلاً عن أنَّ حياةَ الجنين أولى مصلحةً، وإسقاطه أشدُّ مفسدةً من لحوق العار بالزَّانية.

ولا يجوز إجهاض الجنين ـ أيضًا ـ إذا كان عَلَقَةً أو مُضْغَةً للأسباب السَّابقة إلاَّ إذا تقرَّر طبًّا من هيئة مختصَّةٍ موثوقٍ فيها بأنَّ نموَّ الجنين ينعكس سلبًا على صِحَّة أُمِّه وسلامتها، بحيث يفضي إلى اضطراب بعض أجهزتها الجسميَّة أو يخشى فتق موضعِ عمليَّاتٍ جراحيَّةٍ أُجريت لأُمِّه سابقًا، ونحو ذلك من الأخطار الَّتي تسوِّغ إسقاطَ الجنين بعد استنفاد كافَّة السُّبل الوقائيَّة لتفادي هذه الأخطار.

هذا؛ ولو أجهضت المرأة ما في بطنها في الطَّور الأوَّل والثَّاني من مراحل تكوين الجنين من غير مسوِّغٍ شرعيٍّ يخوِّل لها إسقاطه؛ فإنَّ إثم الفاعلِ والمعينِ يثبت من غير ترتُّب لأحكام المسؤوليَّة الجنائيَّة من جهة وجوب الدِّيَّة والكفَّارة؛ ذلك لأنَّ النُّطفة والعَلَقَة لا يطلق عليهما مُسمَّى الجنين ولا تأخذان حكمه، لذلك لا تترتَّب عليهما آثار المسؤوليَّة الجنائيَّة.

(11) أخرجه مسلم (1695)، وأحمد (348/5)، من حديث بريدة رضي الله عنه.

أمَّا المضغة المُخَلَّقة الَّتي صوَّرها الله بصورةِ الآدميِّ، وظهر فيها الرَّأس واليدان والرِّجلان، أو بعضها؛ فهي بهذا الاعتبار تسمَّى جنينًا على الأصحِّ سواء ظهرت الصُّورة عيانًا أو كانت الصُّورة خفيَّةً تعرفها القوابل ويشهدن بوجودها، وهو مذهب الشَّافعيَّة والحنابلة[12]، أمَّا مذهب الحنفية فلا يعطون المضغة حكمَ الجنين إلاَّ إذا تبيَّن شيء من خلقه[13]، وعلى العكس من الرَّأيين السَّابقين فإنَّ المالكيَّة يعتبرون العَلَقَة في حكم الجنين إذا كانت مهيَّأة للانتقال إلى طور المضغة، وتعرف بعدم ذوبان الدَّم المجتمع فيها إذا صبَّ عليها الماء الحارّ، بخلاف ما يذوب؛ فلا يعطى حكم الجنين[14].

وإذا أعطيت المضغة المُخَلَّقة حكمَ الجنين دون ما تقدَّمها من مراحل الحمل على الصَّحيح؛ فإنَّ إسقاطها تترتَّب عليه أحكام المسؤوليَّة الجنائيَّة.

هذا؛ ومن بابٍ أولى وأوْكَد أنَّه لا يحلُّ إسقاطه بعد الطَّور الثَّالث عند تمام أربعة أشهر من الحمل ونفخ الرُّوح فيه إلاَّ إذا كان بقاء الجنين ونموُّه في بطن أُمِّه يُؤدِّي حتمًا إلى موتها بتقرير هيئةٍ طبيَّةٍ موثوقٍ بها؛ فإنَّه ـ والحال هذه ـ يرخَّص في إسقاطه محافظةً على أصل الجنين ـ وهي أُمُّه ـ؛ لأنَّها سببٌ في وجوده، فلا يكون سببًا في موتها،

(12) انظر: «مغني المحتاج» للشّربيني (103/4 ـ 104)، «المغني» لابن قدامة (802/7).

(13) «ردُّ المحتار» لابن عابدين (590/6).

(14) «الشَّرح الكبير» للدَّردير، معه «حاشية الدُّسوقي» (268/4).

وهو عذرٌ شرعيٌّ متبولٌ عملاً بأهون الضَّررين وأخفِّ المفسدتين، وجلبًا لأعظم المصلحتين.



السؤال:

لقد شاع بين أوساط بعض التُّجَّار بيع أدوات الزِّينةِ والتَّجميل من المساحيق والعطور للنِّساء بُحجَّة أنَّهم ينصحونهنَّ بأن لا يستعملنها خارج البيت.

فهل تجوز هذه المعاملة؟

الجواب:

لا يجوز بيع المساحيق الَّتي تدخل في تركيب موادها التَّجميلية ومكوِّناتها الصِّناعيَّة الأجنَّة البشريَّة ولا مخلَّفات عمليَّات الولادة والبقايا العضويَّة للجنين كالحبل السُّرِّي والمشيمة ونحو ذلك؛ لما فيه من الاعتداء على العنصر البشري المحرَّم بالنُّصوص الشَّرعيَّة الثَّابتة.

كما لا يجوز بيع المساحيق الَّتي يحتوي تركيبها الصِّناعي على أجنَّة حيوانيَّة كالخنزير وأنواع الميتة؛ لعموم علَّة نجاستها، وكذا العطور المحتوية على كحول مُسكرة، إذ المعلوم أنَّه لا يصحُّ بيع ما يحرم الانتفاع به كالخمر والخنزير والميتة ونحو ذلك؛ لقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الخمْرِ وَالميْتَةِ وَالخنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ...**»، ثمَّ قال عند ذلك: «**قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ! إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ**[15] **ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ**»[16]، وقد اتَّفق العلماء على تحريم الانتفاع بشحوم الميتة والخنزير والأدهان المتنجِّسة في أكل الآدميِّ ودهن بدنه، فيحرمان كحرمة أكل الميتة والتَّرطُّب بالنَّجاسة؛ لقوله تعالى: ﴿**قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ**﴾ [الأنعام: 145].

كما لا يجوز ـ أيضًا ـ بيع المساحيق الَّتي تسبِّب أضرارًا بالوجه بالتَّشويه، وحدوث بُقَعٍ سوداء، أو تحدث في عموم الجسم أمراضًا جلديَّةً مختلفةً؛ لما في عناصرها المركَّبة من موادَّ كيماويَّة تضرُّ بالبشرة أو بالعين، والضَّرر يُزال عن نفس المستعمِل لها وعن غيره بالبيع والتِّجارة، لقوله ﷺ: «**لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ**»[17].

هذا؛ وإذا خلت المواد التَّجميليَّة في تركيبها من المحرَّم والنَّجاسة والضَّرر؛ فالأصل فيما عدا

(15) «جمَلوه» أي: أذابوه، والجميل هو الشَّحم المذاب، ويقال: جملت الشَّحم وأجملته: إذا أذبته واستخرجت دهنه. [«النهاية» لابن الأثير (1/298)، «الفائق» للزَّمخشري (1/232)].

(16) أخرجه البخاري (1/529)، ومسلم (1581)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(17) أخرجه ابن ماجه (2341)، وأحمد (2921).

قال النَّوويُّ في الحديث رقم (32) من «الأربعين النَّوويَّة»: «وله طرق يَقْوى بعضُها ببَعض»، وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (378): «وهو كما قال». والحديث صحَّحه الألباني في «الإرواء» (3/408).

ذلك جواز استعمالها للمرأة ما دامت لا تبديه إلاَّ لمن أذن اللهُ لها في إبدائه له.

ويجوز لها للغرض نفسه أن تتطيَّب بما شاءت من الطِّيب ما لم يكن محتويًا على نسبةٍ من كحول مسكرة، كما تقدَّم.

غير أنَّه يمنع عليها استعمال الطِّيب مطلقًا عندما تكون مُحْرِمَةً بحجٍّ أو عمرةٍ؛ لقوله ﷺ في شأن المحرم: «...**وَلاَ تَلْبَسُوا شَيْئًا مَسَّهُ زَعْفَرَانُ وَلاَ الوَرْسُ**»[18]، وهو عامٌّ للذُّكور والإناث، وعند الإحداد على الميِّت لقوله ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاَثٍ إِلاَّ عَلَى زَوْجٍ؛ فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**»[19].

وعند خروجها من بيتها ولو إلى المسجد، لابدَّ عليها من إزالة رائحة العطر العالقة بها إن أرادت الخروج، ويُعَدُّ خروجُها من بيتها متعطِّرةً ومتزيِّنةً من الكبائر ولو مع إذن زوجها؛ لقوله ﷺ: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِقَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ**»[20]، ولقوله ﷺ: «**إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ المَسْجِدَ، فَلاَ تَمَسَّ طِيبًا**»[21]؛ لأنَّ الزِّينة والعطر مطلوبان للمرأة في بيتها عند زوجها لا عند الخروج منه أيًّا كان مقصدها.

ولا يخفى أنَّ بيع أدوات الزِّينة والتَّجميل لمن يعلم استعمالها في التَّبرُّج أو في نوع الخروج المنهيِّ عنه لا يجوز؛ لما فيه من التَّعاون على الإثم والعدوان؛ لقوله ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[22]، ولقوله ﷺ: «**فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»[23].

أمَّا بيع المساحيق لمن يعلم استعمالها في الزِّينة والتَّجميل المباح؛ فلا حرج في بيعه.

وأمَّا إذا خفي عليه حال المشتري؛ فحكم الجواز متوقِّف على المظاهر الشَّائعة في استعمال المساحيق في عرف بلده، فإنْ كانت أكثريَّة أهل بلده تستعملها في الزِّينة المباحة فلا مانع في بيعها، وإن كانت غالبيتهم تستعملها في الرَّذيلة والفتنة فلا يجوز بيعها؛ لأنَّ «الحُكْمَ لِلْغَالِبِ، وَالنَّادِرُ لاَ حُكْمَ لَهُ»، «ومُعْظَمُ الشَّيْءِ يَقُومُ مَقَامَ كُلِّهِ».

قال القرافي رحمه الله: «الأصل اعتبار الغالب وتقديمه على النَّادر، وهو شأن الشَّريعة، كما يقدَّم الغالب في طهارة المياه وعقود المسلمين، ويمنع

(18) أخرجه البخاري (1/441)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(19) أخرجه البخاري (1/306)، ومسلم (1486)، من حديث أم حبيبة رضي الله عنها. وسبب ذكر الحديث أنّ زينب بنت أبي سلمة قالت: دخلت على أمّ حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان، فدعت أمّ حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت منه جارية ثمّ مسّت بعارضيها ثمّ قالت: والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: (ثمّ ذكرت الحديث).

(20) أخرجه أبو داود (4/258)، والترمذي (2786)، وأحمد (4/413)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. والحديث صحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (323).

(21) أخرجه مسلم (443)، من حديث زينب زوجة عبد الله ابن مسعود رضي الله عنهما.

(22) أخرجه البخاري (3/10)، ومسلم (2740)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(23) أخرجه مسلم (2742)، وأحمد (3/22)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

شهادة الأعداء والخصوم؛ لأنَّ الغالب منهم الحيف، وهو كثير في الشَّريعة لا يحصى كثرة»[24].

والأولى بالبائع - والحال هذه - أن يغيِّر نشاطه التجاري إلى نشاط آخر أسلم لدينهِ وعِرضه.

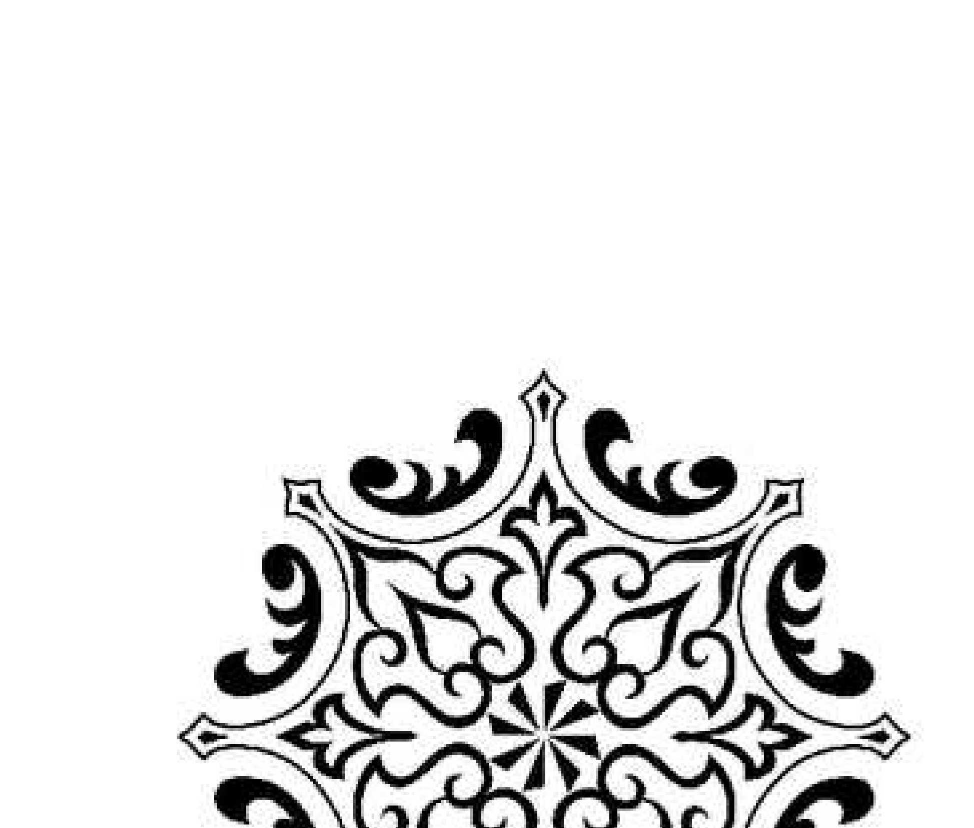
أمَّا إن كانت مظاهر التَّبرُّج قليلة غير متفشِّية، وخفي عليه الأمر، فله أن يبيع هذه الأدوات التَّزيينيَّة حملاً لحال النَّاس على الصَّلاح.

فإن شكَّ في ظاهر حال المشتري فيمتنع عن البيع؛ عملاً بقوله ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ**»[25]، ولقوله ﷺ: «**فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحرَامِ**»[26].

هذا؛ ولا يصحُّ بيع هذه المساحيق والعطور المباحة لمن يستعين بها على معصية الله تعالى، أو يستخدمها فيما حرَّم الله تعالى، ولو مع تقديم النُّصح له بعدم استعمالها في الرَّذيلة والهتيكة؛ لأنَّ الأصل استصحاب الحال حتَّى يثبت العكس.

ولا يخفى أنَّ النَّصيحة متردِّدة بين القَبول والردِّ، ولا يمكن إجراء التَّعامل التِّجاري الصَّحيح إلاَّ بعد أن يثبت عكس حاله بقَبول النَّصيحة والعمل بمقتضاها.

والعلمُ عند اللهِ تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا.



(24) «الفروق» للقرافي (104/4) بتصرف.

(25) أخرجه الترمذي (2518)، والنسائي (5711)، وأحمد (267/4 - 270 - 441)، من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الإرواء» (44/1).

(26) أخرجه البخاري (19/1)، ومسلم (1599)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

الشيخ محمد صالح بن منصور

«ابن دايخة»

سمير سمراد

إمام خطيب، الجزائر

نسبه ومولده

يقول الأستاذ التّواتي بن مبارك العقبي: «يرجع أصله إلى عرش أهل بن نصر من قرية «المنصورية» جنوب بلدة «سيدي عقبة»، حلَّ جده الرَّابع الشَّيخ أحمد بن منصور بالسُّكنى في سيدي عقبة أواخر القرن الثَّاني عشر الهجري بطلب من شيخها أحمد بن الحاج محمَّد ابن التّواتي الشَّريف، **وقلَّدَهُ وظيفة الإفتاء**»[1].

أمَّا حفيدةُ الشَّيخ؛ فتقول: «من عائلة عريقة النُّبل والعلم يرجع أصلها إلى «الحاج علي»؛ وهو أحد الأمراء الَّذين أرسلهم أبو جعفر المنصور العبَّاسي إلى إفريقيا الشَّمالية.

تجذَّرت هذه العائلة في «سيدي عقبة»؛ حيث كان أحد أجداد العلاَّمة: «قاضي القضاة بها»»[2]، وجاء في الرَّسم الَّذي نَشَرَتْهُ؛ في «شجرة عائلة الشَّيخ محمَّد صالح بن منصور»: «الشَّيخ عبد الله بن منصور؛ **متولِّي الفتوى** ببسكرة وعالمها»؛ وهو على حسب ما يظهرُ في الرَّسم؛ والدُ جدِّهِ الرَّابع! واسمه «عبد الله» لا «أحمد»!!

فيما عدَّ الأستاذُ التواتي بن مبارك؛ الجدَّ الأوَّل للشَّيخ المترجَم «محمد صالح»!: «الشَّيخ بلقاسم»، وجعله من شيوخه الَّذين درس عليهم! فقال في ترجمته: «محمَّد بن الصَّالح **بن بلقاسم** ابن أحمد بن منصور»! وهو مخالفٌ لما في رسم الشَّجرة في كتاب الحفيدة: «محمَّد بن/ صالح ابن/ **أحمد** بن/ **بلقاسم** بن/ أحمد...»!! ولا أدري وجهَ الاختلاف!

وإنْ كان يبدُو من الأستاذ التواتي العقبي التَّحقيقُ والتَّحَرِّي، إلا أنَّه جاء بمعلوماتٍ عن المترجَم، لم أجدها عند غيرِهِ؛ سيَّما وقد نصَّ على جدِّهِ الأول «بلقاسم»؛ فيمن تتلمذ عليهم، ويبعُدُ أن يكون وقع للمترجَمِ ذلك: مع والدِ جدِّهِ!

وجرى على ذلك أيضًا مقران يسلي، في «الحركة الإصلاحيَّة في منطقة القبائل» (ص259)؛ فقال: «واسمه الكامل محمَّد بن صالح بن بلقاسم ابن أحمد بن الشَّريف النَّاصري المنصوري» اهـ.

(1) «البصائر»، السلسلة الرابعة، العدد (120)، (ص12)؛ التواتي ابن مبارك: «الذكرى الخمسون لوفاة العالم الأديب: محمد بن منصور العقبي».

(2) سمية منصوري: «سيرة وأعمال العلامة محمد منصوري».

«ولد مترجمنا في سنة (1300هـ) الموافق لـ 1882م بسيدي عقبة»[3].

أمَّا حفيدتُهُ، فتقول: «ولد محمَّد صالح منصوري العقبي، الملقَّب بـ«ابن دايخة» في العام 1889م، ببلدة «سيدي عقبة»».

شيوخه

«وبها نشأ وتربَّى، وتعلَّم في كتابها وحفظ بها القرآن الكريم ودرس عدَّة فنون كالنَّحو والفقه واللُّغة، كما حفظ كثيرًا من الشِّعر وجمعًا من المتون، تتلمذ على عدَّة مشايخ في جامع عقبة منهم جدُّه: الفقيه بلقاسم ابن منصور، والشَّيخ البشير العبد رحماني[4]، والشَّيخ علي بن إبراهيم الشَّريف [العُقْبي]، وغيرهم»، ويقول مقران يسلي: «تلقَّى تعليمه الأوَّل على يد والده الشَّيخ الصَّالح ابن بلقاسم الَّذي كان عالِما وفقيهًا، كما تتلمذ على الشَّيخ حمدان الونيسي» اهـ.

هجرة عائلته إلى الحجاز

تقول حفيدتُهُ: «أمَّا أبوه «**صالح بن منصور**» فكان رجلاً صالحًا مولعًا بالعلم والفقه وطالبًا لهُ».

«انتقل إلى الحجاز صحبة والديه وإخوته: عبد الحفيظ وعبد القادر وأمِّ هاني حوالي سنة (1907م)[5] بعد وفاة جدِّه الشَّيخ بلقاسم في سنة (1906م)، واستقرَّ مقامهم في المدينة المنوَّرة، وكان الشَّيخ ابن دايخة شابًّا تجاوز العشرين من عمره، وامتاز بالذَّكاء، حيث كان ذا حافظة مستوعبة، وقريحة نيِّرة جعلته ينكبُّ على طلب العلم بالحرم النَّبويِّ على مشايخ عدَّة عمدته منهم علماء مهاجري شنقيط «موريتانيا»»[6]، وقال صاحبُ «الزَّوايا بالجزائر» (ص825): «لازم... الشَّيخَ حمدان [الونيسي] ودرس عليه وعلى غيره من علماء المدينة آنذاك» اهـ.

«ومن زملائه ابنُ بلده الشَّيخ الطَّيِّب بلحاج صالح العقبي[7] في الآخرين، وقد حصل على علم جمٍّ وامتاز بفصاحة نادرة وشاعريَّةٍ لا بأس بها... قال عنه الشَّاعر محمَّد العيد آل خليفة: «**إنَّه شاعر وشِعْرُهُ فوق المتوسِّط**»»[8].

رحلاته العلمية

تقول الحفيدة: «كان مولعًا بالعلم، متعطِّشًا له، لذا سعى في طلبه والحصول عليه في الكثير

(3) وذكَر هذا التاريخ صاحب كتاب «الزوايا بالجزائر» (ص825).

(4) هو: (الشيخ البشير بن الصادق)؛ وقد ذكر له صاحب كتاب «الزوايا بالجزائر» (ص825): التلمذة عليه، وهو من (أولاد عبد الرحمن) وذكر في ترجمة هذا (ص674)؛ أنه تتلمذ في «سيدي عقبة» على **الشيخ بلقاسم بن منصور؛ [جدّ المترجَم] (الذي اشتهرت أسرته بالعلم والصلاح)**.

(5) جعلها صاحب كتاب «الزوايا بالجزائر» (ص825) في سنة (1906م)!

(6) «البصائر»، السلسلة الرابعة، العدد (120)، (ص12): التواتي بن مبارك: «الذكرى الخمسون لوفاة العالم الأديب: محمد بن منصور العقبي».

(7) هو الشَّيخ العلاَّمة الشَّهير الطَّيِّب العقبي، كما سيأتي.

(8) «البصائر»، السِّلسلة الرَّابعة، العدد (120)، (ص12): التواتي ابن مبارك: «الذكرى الخمسون لوفاة العالم الأديب: محمد ابن منصور العقبي».

من البقاع الَّتي تعتبر كعبةَ العلماء منها: الأزهر الشَّريف بمصر، وأنطاكيا بتركيا!!! ـ حيث كانت له صلات ببعض الأتراك الَّذين شهدوا لهذا الرَّجل بعلمه وفقهه وحسن أخلاقه، وقد شهد بذلك بعض الجزائريِّين الَّذين سافروا إلى هناك ـ، والزَّيتونة بتونس» اهـ، أمَّا «مقران يسلي»؛ فيقولُ: «وفي سنة (1904) التحق بالزَّيتونة، ومنها ذهب إلى المشرق العربي فزار سوريا والمدينة المنوَّرة، وفي سنة (1910) هاجرت أسرة الشَّيخ إلى الحجاز...» اهـ.

قلت: على هذا؛ فتكونُ رحلاتُهُ المذكورة؛ للاستزادة من العلم، قبل أن يحطَّ الرِّحال بالمدينة، وقبل هجرة العائلة، وإن كان تاريخ هذه الهجرة يَدُورُ ما بين (1907) و(1910م).

ثمَّ تلمذتُهُ على الشَّيخ حمدان الونيسي؛ قد تكونُ أوَّلاً، لَمَّا كان لا يزالُ بالجزائر (قسنطينة) [على ما يُفيدُهُ صنيعُ مقران يسلي» ـ وقد نقلتُهُ سابقًا ـ]، ثمَّ أدركَهُ بالمدينة، فتتلمذ عليه ولازمهُ مرَّةً أخرى.

هاجر الشَّيخ حمدان إلى المدينة سنة (1910م)، واجتمع عليه الطُّلاَّب والدَّارسون في حلقات مسجدِهَا إلى وفاته سنة (1920م)؛ وممَّن تتلمذَ عليه من الجزائريين: الشَّيخ الطَّيِّب العقبي (رفيقُ المترجَم في الدِّراسة)، والشَّيخ البشير الإبراهيمي، ليجتمع معهم في هذه التَّلْمَذَة مرَّةً أخرى: الشيخُ ابن باديس؛ وهو ممَّن لازم الونيسي في قسنطينة، «ولم تَدُمْ إقامةُ ابن باديس إلاَّ أشهرًا».

أمَّا عن سفره إلى أنطاكيا (تركيا)؛ فهو بسبب المحنة الَّتي وَقَعَتْ على رُؤُوس أهل المدينة! أيَّام الثَّورة العربيَّة الَّتي قادها الشَّريف حسين، الَّذي انشقَّ عن الدَّولة العثمانية! فضاقت المدينة على من فيها، وأُخرجوا منها، كثيرٌ منهم إلى «تركيا»، وقد وصفَ هذه المحنة كلٌّ من: الشَّيخ العُقْبي[9]، والشَّيخ الإبراهيمي.

وقد عاد الطَّيِّب العقبي إلى مكَّة ثمَّ غادرها إلى الجزائر [وَصَلَهَا سنة (1920م)]؛ لأسبابٍ ذَكَرَهَا، ولعلَّها هي الأسبابُ نفسُها الَّتي حملت المترجَم على العودة إلى الجزائر كذلك! ورُبَّما يكونُ قد اقتدى بزميله الشَّيخ الطَّيِّب، أو كان هذا الأخيرُ هو الَّذي رَغَّبَهُ في ذلك! والله أعلمُ.

وصية الشيخ الصالح بن منصور ـ والد المترجم

نشرت الحفيدة صورةَ الورقة المخطوطة؛ الَّتي فيها وصيَّة الشَّيخ الصَّالح بن منصور؛ والد مترجَمنا؛ حيثُ عهدَ إليه بأن يكون وصيًّا على إخوته من بعدِهِ؛ وهذا نصُّها:

«الحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وسلَّم: سبب تحريره وموجب رقمه وتسطيره هو أن المكرَّم [...] الصَّالح بن منصور

(9) يقول: «أخرجوني...إلى المنفى...«الأناضول»... وهناك بقيت... مبعدًا في جملة الرفاق عن أرض الحجاز... ومنها [أي: «أزمير»] كان رجوعنا معشر أهالي المدينة المنورة إلى الحجاز) اهـ/عن الطاهر فضلاء: «الطيب العقبي رائدًا لحركة الإصلاح الديني في الجزائر» (ص21).

أوصى بأنَّ **ابنه: محمَّد بن دايخة** وصيٌّ بعد وفاته على أبنائه عبد الحفيظ وعبد القادر وأمّ هانئ إلى أن يرشد كلٌّ منهم، وهم تحت نظره، وهو وليُّهم... وعلى ذلك حصل الإشهاد بمحضر الشُّهود، والله خير الشَّاهدين.

حرر 17 محرم 1329.

المقر بما فيه [الختم] [ومن الشُّهود:] شهد بما فيه كاتبه بيده الفانية محمَّد الطَّيِّب بن الحاج صالح العقبي المغربي...» اهـ.

قلت: الكاتبُ والشاهدُ هُنَا؛ هو الشَّيخ العلاَّمة الشَّهير: الطَّيِّب العقبي![10] وهذا يُبَيِّنُ وثيق الصِّلة الَّتي كانت بين العائلتين، أو بين الشَّيخ الطَّيِّب والشَّيخ الصَّالح وابنه الشَّيخ ابن دايخة، رحمهم الله.

العودة إلى الجزائر

«في سنة (1920) رجع الشَّيخ ابن دايخة إلى أرض الوطن وحيدًا دون إخوته، واستقرَّ بمسقط رأسه»، أمَّا الحفيدةُ؛ فتقول: «ونظرًا لِمَا أحاط به شيخنا من علم وعقيدة وحبٍّ للوطن، قفل راجعًا إلى مسقط رأسه «سيدي عقبة» العام (1925م)[11]، لإفادة أهالي بلدته ببعض ما فتح الله عليه من فقه، تاركًا بقيَّة أهله: عبد القادر وعبد الحفيظ وأمّ هانئ في المدينة المنوَّرة الَّتي ما زال أحفادهم إلى الآن قاطنين بها» اهـ.

التدريس والإمامة بجامع «سيدي عقبة»

«جعل يُدَرِّسُ بجامع عقبة ما اقترح عليه؛ فقدم درسَ تفسيرٍ بين المغرب والعشاء للعامَّة، ودروسًا في الفقه والنَّحو للنَّاشئة.

واستخلفه الشَّيخ عبد الحي بلهادي لإمامة الجمعة، فكان خير واعظ وخطيب»، وقد عُرف في البلدة بالإتقان لعلم الفقه، والبراعة فيه؛ حتَّى لُقِّبَ بـ«**فقيه سيدي عقبة**»، كما كتب أحدُهُم في صحيفة «النجاح» [العدد (299): 21 ماي 1926م/ (ص3)].

انضمامه إلى جماعة المصلحين والتفافه حول زعيمهم

تكوَّنَتْ جماعة إصلاحيَّة، في بلدة «سيدي عقبة»، تأثَّرت بالدِّعاية الجريئة الَّتي بثَّها العلاَّمة الشَّيخ الطَّيِّب العقبي في المنطقة، **وكان ضمنها صاحبُ التَّرجمة**؛ وكأنَّ أحد الكتَّاب؛ من أنصار الطُّرق والبدع! عَنَاهم على وجه الخصوص وغيرَهم من المصلحين على وجه العموم، إذْ

(10) قال الشَّيخ الطَّيِّب في ترجمته لنفسه: «والدي هو محمَّد ابن ابراهيم بن الحاج صالح، وإلى هذا ينسب اليوم كلُّ فرد منَّا، وبه تعرف عائلتنا، فيقال لكلٍّ منَّا (ابن الحاج صالح) اهـ/ عن كتاب: الطاهر فضلاء (ص16)، قلتُ: ولعلَّ الشيءَ نفسَهُ يقالُ عن المترجَم (الشيخ محمَّد ابن منصور)؛ فإنَّهم يُنسبون إلى جدهم (ابن منصور)؛ فيقال لكلِّ فرد من عائلتهم (ابن منصور)؛ كما هو ظاهرٌ في رسم (شجرة نسبهم)!

(11) التَّاريخ الأوَّل؛ هو المرجَّحُ! فقد نُشِرَتْ لهُ قصيدة في «المديح»: «أعد ذكر طه» في جريدة «الصديق» - صدرَتْ بالجزائر -: [العدد (13)] 20 ديسمبر سنة 1920/ عن «الشعر الديني» (ص92) لعبد الله ركيبي، ثم رجعتُ إليها في الجريدة.

كتب في «النَّجاح» [العدد (1172): 10 سفر 1350هـ/ 26 جوان 1931م/ ص2] مقالاً ملأه طعنًا وسبابًا، عنون له بـ: «**لقد هزلت**»، وصفهم فيه بأنَّهم: يتطاولون على أعراض الشَّخصيَّات البارزة في سجِّل التَّاريخ وينبشون قبور الأموات والأولياء بسبِّهم وشتمهم، ويجترئون على نفي الكرامة والولاية من أصلها... الخ

فقامت هذه الجماعة الصَّالحة المصلحة، فنشروا: «**احتجاج ودفاع ـ من سيدي عقبة إلى جريدة النَّجاح...!!! ـ**» في جريدة «البلاغ» [العدد (220): 22 ربيع الأول 1350هـ/ 7 أوت 1931م/ ص2]:

«إنَّنا الواضعين خطوط أيدينا أسفله قد تأثَّرنا تأثرًا كليًّا من المقال الَّذي رأيناه بجريدة «النَّجاح»... أبرزه كاتبه بإمضاء «نصوح»! وإنَّه بنفس الأمر لعدوٌّ للإسلام والمسلمين، غاشٌّ لهم، وكيف لا يكون عدوًّا للإسلام والمسلمين من يطعن في علماء الشَّريعة المطهَّرة، الذَّابِّينَ عنها، والمتمسِّكين بأصلها وفروعها... وهو أكبر الغاشِّين، رأى الأمَّة اجتمعت على أمر دينها؛ فأراد تفرقتها وتمزُّقها، فالأمَّة اليوم قد انتبهت لمكائد الكائدين ومكر الماكرين وعرفت أنَّ صراط الله المستقيم واحد، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾ [الأنعام: 153].

الإمضاءات: [منهم].. بسكري عمر بن البسكري... منصوري محمَّد صالح...» اهـ.

محنته بـ«سيدي عقبة»

«تكفَّل صندوق الجامع للشَّيخ بجراية شهريَّة محدودة لا قيمةَ لها بالنِّسبة لمقامه، ومع ذلك فقد حُرِمَ منها وأقصي من الجامع بعد وفاة الشَّيخ الإمام عبد الحي بلهادي في شهر ديسمبر سنة (1929)، مع إسناد الإمامة لابن أخيه الصَّادق ابن محمَّد الهادي في سنة (1930)، وهو رجل قضاء أُجبر على الاستقالة منه، وجيء به إلى الجامع إمامًا، فكره الجمهور إمامته بما فيه الهيئة المسيِّرة لشؤون الجامع، وضايقوه، وحدَّدوا مهمَّة الإمام في المنبر والمحراب لا غير، وأمسكوا عن المعونات الَّتي كانوا يمنحونها للطَّلبة المتطوِّعين بالدُّروس في الجامع، ومنهم الشَّيخ ابن دايخة.

ضاقت «سيدي عقبة» بالشَّيخ ابن دايخة وعسر عيشه فيها، وقال قولته الشَّهيرة يوم وداعها: «**والله! لو وجدت قوت الشَّعير فيها ما برحتها**»، وقد وصف حالته في قصيدة بعنوان: «**أشكو إلى الله صروف زماني**».

انتقاله إلى عاصمة الجزائر

وتوجَّه مستعينًا بصديقه وزميله أيَّام طلب العلم بالمدينة المنوَّرة العلاَّمة الشَّيخ الطَّيِّب العقبي بالجزائر العاصمة، فكان خير مساعد ومعين، وسعى له مع أهل مدينة «برج أم نائل» في بلاد القبائل ليتولَّى بها الإمامة حرًّا، وتمَّ له

مبتغاه في سنة (1931)...»[12] اهـ.

من نشاطاته وأعماله في بلدة «برج أم نائل»

«بدأ النَّشاط الإصلاحي في ناحية «برج أم نائل» بتأسيس المسجد الحالي سنة (1932)، على يد جماعة من المصلحين... ومن نشاط الشَّيخ محمَّد ابن منصور من خلال هذا المسجد، نشر العلم والمعرفة في ربوع هذه المنطقة، وقد عاش الشَّيخ حياةً مليئة بالأعمال الخيريَّة، حيث كان مدرِّسًا بالنَّهار، وواعظًا باللَّيل، وقد صنَّف عمله صنفين:

1 ـ دروس عامَّة: كتفسير بعض الآيات والأحاديث النَّبويَّة... فضلا عن الخطب الدِّينيَّة والصَّلوات الخمس الَّتي كان الشَّيخ حريصًا عليها.

2 ـ دروس خاصَّة: كتدريس «الآجرُّوميَّة» و«القطر»، وما إلى ذلك من العلوم الأخرى» اهـ[13].

«كان في هذه المدَّة كلِّها مُدْبرًا عن الدُّنيا مُذِلاً لها، مقبلاً على الآخرة مُعِزًّا لها، فكان رحمه الله من فطاحل العلماء الَّذين يسعون في صلاح العباد، وترقية الأفكار، وإرشاد الخلائق لِما فيه صلاحهم الدُّنيوي والأخروي، كان عالِمًا نصوحًا مرشدًا، ممَّن سلم النَّاس من لسانه ويده، ولطالَما أنار العقول، وبيَّنَ السُّبل بخطبه الرَّنَّانة، ومواعظه النَّافعة، ودروسه المفيدة، وكان سهل المعاشرة، قريب النَّفع، كثير الورع، نزيه النَّفس، لا تأخذه في الله لومة لائم»[14].

زار متجوِّل «البصائر»؛ «الشَّيخ أحمد حمَّاني» بلدة «برج أم نائل» **(سنة 1938م)**، فكتب عنها ما يلي: «بلدة صغيرة تقع وسطًا بين «تيزي وزو» و«الجزائر»؛ وهي حديثة النَّشأة، حدثت بعد الاحتلال، وأراضيها خصبة جدًّا، وفلاحتها الكروم، يسكنها كثير من المستعمرين، وبعض المسلمين، وبها جامع أقيم من بضع سنوات، وقد كانت إلى بضع سنوات لا أثر للحركة الإصلاحيَّة فيها، ولكن مَنَّ الله عليها بأحد رجال الإصلاح الأفذاذ هو الشَّيخ محمَّد بن منصور، فدعا إلى بناء الجامع، ثمَّ كان إمامه، وهو الآن يقوم بدروس الوعظ والإرشاد فيه ويصلِّي الجمعة، وقد صادف أن حضرتُ هناك يوم الجمعة فكانت خطبته فيه دعوة للنَّاس إلى تعلُّم العلم والحثِّ على طلبه والتَّرغيب فيه، فأجاد وأحسن، ويا ليت كلّ خطبائنا يخطبون في مثل هذه المواضيع الَّتي تمسُّ بحالة الأمَّة الآن، وتفيدها ويريحوننا من الخطب الَّتي كتبت منذ قرون وكادت العوام تحفظها عن ظهر قلب» اهـ[15].

---

(12) «البصائر»، السلسلة الرابعة، العدد (120)، (ص12): التواتي بن مبارك: «الذكرى الخمسون لوفاة العالم الأديب: محمد بن منصور العقبي».

(13) معلومات شفوية أدلى بها الشيخ الحاج السعيد معزوزي ـ أحد رجال الإصلاح في برج أم نايل ـ بتاريخ 1981/9/25/ عن: ليسلي مقران: **«الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل (1920 ـ 1945)»** (ص206 ـ 207)].

(14) كلمة تأبينية(!!) للأستاذ: عمارة مزيان، بتاريخ 1952/11/03م/ انظرها في «سيرة وأعمال العلامة محمد منصوري» (ص251).

(15) «البصائر»، السلسلة الأولى، العدد (130)، (ص8).

تعريف الشيخ ابن باديس به

قال ابن باديس في التَّعريف بأعضاء المجلس الإداري للجمعيَّة سنة (1938م): «...**الشَّيخ محمَّد ابن منصور العُقْبي، الإمام والمدرِّس بجامع «أم نائل» الحرِّ، وهو ذو جدٍّ ورصانة وأخلاق رضيَّة حَبَّبَتْ فيه أهل قرية «أم نائل» وضواحيها، وجَمَعَتْهُمْ عليه مِنْ أوَّل يوم حلَّ فيه بين ظهرانيهم**»[16] اهـ.

عقيدته ودعوته الإصلاحية

انضمَّ الشَّيخ محمَّد بن منصور إلى «جمعية العلماء»، مِنْ أوَّل يومٍ لتأسيسها، ثمَّ صار بعد زمانٍ عضوًا في «مجلسها الإداريّ»، وأسوقُ هُنا جملاً من خطبه الإصلاحيَّة، تُنْبي عن خطته الدِّينيَّة، وهي نفسُها، الخطَّةُ الَّتي نادت بها الجمعيَّة، وجنَّدتْ لها الرِّجال، وكانتْ لها في دائرتها أعمال؛ وأيُّ أعمال؟!

يقولُ محرِّر «البصائر» [العدد (5)، 6 ذي القعدة 1354هـ/ 31 جانفي 1936م، (ص5 - 6)]:

«ننشر فيما يلي - كمثال لِما قابلت به الأمة وفود جمعيَّة العلماء... - نصّ الخطاب الَّذي ألقاه بقاعة الأفراح ببلدة «برج أم نائل» على الآلاف من الحاضرين **الشَّيخ «محمَّد بن منصور» إمام البلدة والمدرِّس بجامعها الحرّ** كما ننشر في تلوه نصّ الخطبة الَّتي أنشأها بهذه المناسبة وخطب بها على المنبر لصلاة الجمعة؛ قال في خطابه: ...ثمَّ إنِّي عن نفسي؛ وبالنِّيابة عن أبناء جنسي؛ ألا وهم كلُّ مصلح محبٍّ للعلم والعلماء أقدم لكم بمناسبة قدومكم الميمون عبارة الفرح والسُّرور والَّتي تعرب عمَّا تكنُّه الصُّدور، وأنتم أيُّها السَّادة الحاضرون كونوا للخير سامعين، وللحقِّ قابلين؛ إذ لا خير فيمن يسمع الخير ولا ينقله؛ ويدعى إلى الحقِّ فلا يقبله؛ إنَّما الخير في سماع الحقِّ وقبوله، وفي طاعة الله ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء]، وفي الختام أهدي للجميع عاطر التَّحيَّة وأوفر السَّلام؛ واسمحوا لي أيُّها السَّادة قبل أن أغادر مكاني بإلقاء هذه الأبيات وهي:

قد جاءنا العقبي يحمل حجة ... من عند أحمد سيد الأكوان

أهلا بنور العلم جاء ينير ما ... قد أظلم الأقوام منذ زمان

إن جاء غيرك للبيوت بآلة النـ ... ـور الحديث فأنت بالفرقان

قد جئتنا بالبينات نيابة ... عن أحمد المختار من عدنان

نورت بالذكرى القلوب فأصبحت ... تفديك بالآباء والولدان

كالغيث أنت فما مررت ببلدة ... إلا تركت الخصب في الأذهان

لله درك يا وحيد زمانه ... في العلم والإرشاد والإحسان

(16) «مذكرات الشيخ خير الدين» (354/1).

بل في جميع ما إليه دعوتنا

ونصحتنا ما أن يرى لك ثاني

طوقت بالمنن العظام رقابنا

وهديتنا للحق بالبرهان

وصبرت صبرا في دعائك جاهدا

ترجو بذلك رحمة الرحمن

أمَّا خطبة الجمعة الَّتي خطب بها في ذلك اليوم فهي هذه:

...أمَّا بعد؛ فإنَّ البدع قبل أن يفتح العلماء أفواههم لدفعها بالحجج كانت كنار الجحيم تتأجَّج، وعمَّ ضلالها الأقاليم؛ وما أحد قال فيها هذا عذاب أليم، بل بعض يحبذ ويحسن؛ وبعض يقول هذا أمر هين؛ حتَّى كثر شرُّها وظهر ضرُّها، فقام العلماء الَّذين هم ورثة الأنبياء حقًّا فتداركوا الأمر فأطفأوا بنور العلم نارها، وأزالوا بسيف الحجَّة عن الأمَّة عارها، وحاربوها في عقر دارها، واقتلعوها من أسِّ جدارها؛ فذهب أهلها يعثرون في أثواب الخجل، ويلوكون ألسنة العجز والفشل، وشعارهم إنَّا وجدنا آباءنا على أمَّة وإنَّا على آثارهم مقتدون، وطالَما عدّ النَّاس هذه البدع سننًا، وحسبوا نقمتها عليهم مِنَنًا إلى أن عمَّ الفساد سائر البلاد، وتوصَّلوا بذلك إلى ما حرَّم الله، وصار كلٌّ يتَّبع ما يهواه ووقعوا في حيرة بعد ما عميت منهم البصيرة، ولا ملجأ من الله إلا إليه، ثمَّ أنقذهم بهذه الطَّائفة الَّتي أخبر بها صاحب الحوض والشَّفاعة بقوله: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلاَ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»، وبقوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ**»، وقد جاءكم وفد العلماء؛ فكونوا لوعظهم سامعين واسألوهم عن أمر الدِّين...» اهـ.

ومن خطبه في: «**اجتناب البدع والشِّرك**»:

خطبة: «**تنهى عن الشِّرك والتَّطيُّر وتدعو إلى اللُّجوء والتَّمسُّك بالله**»:

«...أمَّا بعد، فيا أيُّها النَّاس مَنِ اعتصم بحبل الله نال الرِّضى والرِّضوان، ... فتزوَّد لتلك الدَّار الباقية، وامتثل أمر الخالق، وعلِم أنَّه المعطي الرَّازق، وأجمل في الطَّلب، وتعاطى السَّبب، معتقدًا أنَّ ما قضاه وكتبه في كتابه المكنون، لابدَّ أن يقع ويكون، إنَّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كنْ فيكون، فلم يتشاءم ولم يتطيَّر، ولم يحزن على ما فات ولم يتغيَّر، ولم يُعَادِ الشُّهور والدُّهور، وعلى الله توكَّل في جميع الأمور، وقال ربِّيَ الله ثمَّ استقام، وأخلص العمل، فكانت عاقبته عدم الخوف والوجل، وبشِّر بالجنَّة الَّتي هي غاية الأمل... وخاب وخسر من تشاءم وتطيَّر، وكلَّما نزلت به نازلة تطيَّر بشيء من أجلها وتحيَّر، واعتقد في الأحجار وغيرها أنَّها تضرُّ وتنفع، وتدفع عنه المكاره وتشفع، فصار يتقرَّب إليها بالشُّموع والبخور، وكلَّما نزعه إبليس قال: يلزمني أن أذهب إليها وأزور، ذلك الَّذي اتَّخذ إلهه هواه، فجرَّه شيطانه إلى ما يهواه، فيا ويح هذا المغرور! الَّذي عصى مولاه، وأطاع شيطانه وهواه... فتب لمولاك يا حليف العصيان ويا مطيع الشَّيطان! قبل أن تزجَّ في النِّيران...» اهـ[17].

(17) «سيرة وأعمال العلامة محمد منصوري العقبي» (ص161 ـ 162).

ومنها خطبةٌ في: «**الحثّ على الدُّعاء بأسماء الله الحسنى لا بأسماء غيره**»:

«...فادعوا الله عباد الله! وخصُّوه بالدُّعاء فهو القريب المجيب، قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة]، فكيف يترك العبد باب ربِّه الَّذي خلقه وسوَّاه، ويقصد باب عبد عاجز عن جلب ما يحبُّه ويهواه، لا يجلب ولا يدفع، ولا يضرُّ ولا ينفع، قال - عليه الصَّلاة والسَّلام -: «**اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، لوَلاَ رَادَّ لِمَا قَضَيْتَا، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**»، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف]، وقال - عليه الصَّلاة والسَّلام -: «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»، عبادة غير الله إشراك وخسران وهلاك، فاعبدوا الله عباد الله! بما به أمر، وانتهوا عمَّا نهاكم عنه وزجر، فمنه لا من غيره تطلب الحاجات الوطر [هكذا!]، وهو الَّذي يمحو السَّيِّئات، ويرفع الدَّرجات ويقضي الحاجات، فعليه توكَّلوا، وعلى جوده وكرمه اعتمدوا وعوِّلوا، وخافوا عذابه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء]، وارجوا رحمته واحذروا نقمته...» اهـ (ص165).

ومن خطبةٍ في: «**التَّوبة إلى الله والرُّجوع إليه**»:

«...أمَّا بعد؛ فيا أيُّها النَّاس! من اعتمد على غير الله في أموره خاب وخسر، ومن تحصَّن بغير حصنه وقع في هلاك وضرر، ومن ظنَّ النَّجاة بغير الإيمان والإحسان، فهو في بحار الجهل غريق، ومن أطاع غير الله وعصاه، فهو بالهلاك حقيق، ولا ينجيه من عذابه حميم ولا صديق، فما تمسَّكت أمَّة بغير دين خالقها إلاَّ هلكت، ولا سلكت سبيلاً غير سبيل نبيِّها إلاَّ ضلَّت في بيداء الضَّلالة وشقيت، لقد كثرت عقائد الضَّلال، وظهر من أهلها فاحشُ الأقوال، وسيِّء الأعمال، وقاموا لمحاربة دين الله جهارًا، وتطوَّروا في حالهم أطوارًا، وما الله بغافل عمَّا يعمل الظَّالمون...» اهـ (ص155).

ومن خطبة في «**النَّهي عن أعمال الشَّرِّ**»:

«...أمَّا بعد؛ فيا أيُّها النَّاس فاز من عرف الحقيقة، فعضَّ عليها بالنَّواجذ، وصار بآدابها خير متمسِّك وآخذ، فرقي إلى ذروة الكمال في الدِّين، لتمسُّكه بسنَّة سيِّد الأوَّلين والآخرين، وخاب وخسر والله! من حاد عن طريقه القويم، وكانت حجَّته أنَّ ما يفعله الآن كان منذ زمان قديم، فالحقُّ والله! ما كان عليه المصطفى، وآله وأصحابه أهل الصِّدق والوفا...» اهـ (ص57).

ومن خطبةٍ: «**تحث على التَّفقُّه في الدِّين**»:

«...أمَّا بعد؛ فيا أيُّها النَّاس! عظم الخطب في هذا الزَّمان، وكثرت فيه جنود الشَّيطان، وانتشر فيه أهل الكذب والبهتان، وظهرت فيه البدع وخفيت فيه السُّنن، وما ترك النَّاس سنَّة إلاَّ وضعوا مكانها بدعة، حتَّى ظنُّوا أنَّ البدع سنن، والنِّقم مِنَن، ولولا العلماء ورثة الأنبياء بيَّنوا السُّنن للعباد، وأعلموهم بأنَّ البدع شرٌّ وفساد؛ لذهبت سنَّة سيِّد الخلائق، وانقلبت من أجل

ذلك الحقائق، وصار كلٌّ يتَّبع هواه، وتحنُّ نفسه إلى ما يهواه، وهذا هو الأمر الَّذي يريده الشَّيطان وجنوده أهل الكذب والبهتان، فكونوا منهم على حذر أيُّها المؤمنون!...» اهـ (ص140).

نشرت «الشِّهاب» [العدد (30): 28 ذو القعدة 1344هـ/ 10 جوان 1926م، (ص19)] قصيدةً له بعنوان: «حالتنا...»، جاء فيها:

«وكيف الرَّجا في أمَّة أغنياؤها
شحاح لهم في الشُّح درع معلم
....
وشيمتها خذلان من جاء بالهدى
وتعضيدها من جاء للدِّين يهدم
وتعظيمها من جاء «بالطار» ضاربًا
وتقريعها من جاء للدين يرسم
ومن لطريق الحق يرشدها غدًا
لديها بغيضًا لا ترى من يكلم
ومن لصروح الدين يهدم عندها
هو العالم النحرير فيها مكرمُ
....
ومن يدعي علمًا تراه منفرًا
عن السُّنَّة الغرا وللشر يخدمُ..)

وكان التَّوقيع هكذا: («ابن القيِّم» محمَّد منصور العقبي) اهـ[18].

(18) ولا يخفى على القرَّاء دلالاتُهُ! وقد ذكَّرني هذا، بتوقيع آخر لأحد العلماء الشعراء؛ صدَّر اسمه في التَّوقيع بـ «ابن تيميَّة»! نُشرت قصيدتُهُ في «الشهاب» [العدد(26) (ص21 ـ 22)] تحت عنوان «الدعاء إلى الكتاب والسنة: للعالم السلفي والأديب الوطني صاحب التوقيع:... "**ابن تيمية** عبد الحق ابن إبراهيم الخَنْقي" تحرفت إلى: الحنفي)] اهـ، ومن العجب أن =

وفاته

تقول الحفيدة: «لقد كَرَّسَ حياته لإدراك العلم والفقه في مواظبة لا تعرف الرَّاحة والانقطاع حتَّى آخر رمق من حياته، **حيث وافته المنيَّة وكتابُ الفقه بين يديه**» اهـ (ص8).

توفي (يوم 03 نوفمبر 1952 ببرج أم نائل ـ ولاية بومرداس حاليا ـ وبها دفن يوم 04 نوفمبر 1952 ...).

«أعلنت جريدة «المقتبس» لسان حال «جمعية شباب الموحِّدين»؛ الَّتي تأسَّست في العاصمة تحت نظر وإشراف العلاَّمة الطَّيِّب العقبي] في عددها الرَّابع [20 ربيع الأول 1372هـ/ 08 ديسمبر 1952م] عن وفاة... الشَّيخ الأديب محمَّد بن منصور العقبي... وقدَّمت التَّعازي لصديقه الشَّيخ الطَّيِّب العقبي)[19].

وقالت «البصائر» [لسان حال الجمعيَّة][20]: «من برج أم نايل: انتقل إلى رحمة الله الشَّيخ محمَّد بن منصور الإمام بمسجد البلدة الحرِّ عن سنٍّ عالية قضاها في نشر العلم والدِّين ومحاربة البدع والمنكرات، فرحمه الله رحمة واسعة...».

= تكونَ هذه القصيدة نفسُها، في الكتاب الَّذي جمعته حفيدة الشيخ (ص214)! على أنَّها من شعره!! فتكونُ: وُجِدَتْ ضمن أوراق الشَّيخ ابن منصور، فحُسبت من قصائده، خطأً! ومن أعجب(!) ما وقع للحفيدة: أنْ عدَّت: ضمن قصائده: (المنظومة البيقونيَّة!!)، وقد أثبتها كلَّها، وفي آخرها التَّصريحُ بناظمها البيقونيّ!! ثمَّ إنَّ هناك من القصائد، والقطع الشِّعريَّة، ما أشكُّ في نسبته للشَّيخ! والله أعلمُ.

(19) انظر: فوزي مصمودي: «تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة...» (ص173).

(20) السِّلسلة الثَّانية، العدد (27): 29 صفر 1372هـ/ 17 نوفمبر 1952م، (ص7).



نصيحة الطرطوشي
إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين

إبراهيم بدري

ليسانس في العلوم الإسلامية. بسكرة

لا زالت هذه الأمَّة بخيرٍ ما دام فيها النُّصح وما بقي فيها النَّاصحون، قال رسول الله ﷺ: «**الدِّينُ النَّصيحَةُ**»، وإنَّ حَبْلَ السُّنَّة وإن رقَّ؛ فإنَّه لا ينقطع، وإن توهَّم الضُّعفاء خلاف ذلك؛ فإنَّ العلماء لا يدركهم اليأسُ مِنْ بَذْلِ النُّصح وبثِّه في النَّاس، وقد استعلت همَمُ كثيرٍ منهم لقصد تعميمه والمبالغة فيه؛ فتوجَّهوا به إلى الأمراء، وليس ذلك إلاَّ لِمَن كان له توفيقٌ من الله ولسانُ صدقٍ في العالمين.

وأحسب أنَّ صاحب هذه الرِّسالة ـ وهو الإمام الطَّرْطُوشي ـ منهم والله حسيبه؛ إذ أرسل رسالةً ـ وهي غيض من فيض ـ للملك يوسف ابن تاشفين الَّذي نصر الله به التَّوحيد والسُّنَّة؛ ينصح له فيها ويعظه ويذكِّره بالله.

فأردت أن يعمَّ نفعُها بنشرها في هذه المجلَّة الغرَّاء الَّتي تُعتبر رسالةَ نصحٍ لكلِّ فردٍ من أفراد الأمَّة، والله هو الموفِّق.

* * *

ترجمة الطرطوشي:

هو أبو بكر محمَّد بن الوليد بن محمَّد ابن خلف بن سليمان بن أيُّوب القرشيُّ الفهريُّ الأندلسيُّ الطَّرطوشيُّ، الفقيه المالكيُّ الزَّاهد، المعروف بـ«ابن أبي رندقة».

وكانت ولادته سنة إحدى وخمسين وأربعمائة تقريبًا.

صحب أبا الوليد الباجي بمدينة سرقسطة، وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه، وأجاز له، وقرأ الفرائض والحساب بوطنه، وقرأ الأدب على أبي محمَّد بن حزم الظَّاهري بمدينة إشبيلية.

ورحل إلى المشرق سنة ستٍّ وسبعين وأربعمائة، وحجَّ ودخل بغداد والبصرة، وتفقَّه على أبي بكر محمَّد بن أحمد الشَّاشي المعروف بـ«المستظهري»؛ الفقيه الشَّافعي، وعلى أبي أحمد الجرجاني، وسكن الشَّام مدَّة ودرس بها.

وكان إمامًا عالِمًا عاملاً زاهدًا وَرِعًا دَيِّنًا متواضعًا متقشِّفًا، متقلِّلاً من الدُّنيا، راضيًا منها باليسير، وكان يقول: «إذا عرض لك

أمران: أمر دنيا وأمر أخرى فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدُّنيا والأخرى»، وكان كثيرًا ما ينشد:

إن لله عبادًا فُطَنا
طلَّقوا الدُّنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيها فلمَّا علموا
أنَّها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لجَّةً واتَّخذوا
صالح الأعمال فيها سُفُنا

وله من التَّصانيف: «الحوادث والبدع»، و«سراجُ الملوك»، وكتاب «بر الوالدين»، وكتاب «الفتن»، وغير ذلك.

وتوفي سنة عشرين وخمسمائة بثغر الإسكندرية، فرحمه الله تعالى.

والطُّرطوشي: بضمِّ الطَّاءين المهملتين، بينهما راءٌ ساكنة، وبعدها واو ساكنة، ثمَّ شين مُعْجَمَة، هذه النِّسبة إلى طرطوشة (Tortosa)، وهي مدينة في آخر بلاد المسلمين بالأندلس على ساحل البحر وهي شرق الأندلس.

ترجمته في «وفيات الأعيان» (4/262 ـ 265)، وغيره، ومنها انتقيت هذه التَّرجمة المختصرة.

□□□ أبو يعقوب يوسف بن تاشفين:

(410 ـ 500 هـ = 1019 ـ 1106م) المصالي الصَّنهاجي اللَّمتوني الحميري، أمير المسلمين، وملك الملثَّمين: سلطان المغرب الأقصى، وباني مدينة مراكش، وأوَّل من دعي بأمير المسلمين.

ولد في صحراء المغرب، وولاَّه ابن عمِّه أبو بكر بن عمر اللمتوني إمارة البربر، وبايعه أشياخ المرابطين.

وجال جولة في المغرب بجيش كبير، فقوي أمره، واستولى على مدينة فاس، وغزَا الأندلس؛ فصالحه ملوكها على الطَّاعة له.

واستخلفه أبو بكر بن عمر على المغرب (سنة 463 هـ) فاستقلَّ به.

وبنى مدينة مراكش (سنة 465)، وكتب إليه المعتمد بن عباد (سنة 475) من إشبيلية، يستنجده على قتال الفرنج، فزحف بجموعه، فكانت وقعة «الزلاقة» المشهورة الَّتي انكسر فيها جيش الفرنج الزَّاحف من طليطلة كسرةً شديدة (سنة 479)، وبايعه بعد انتهاء الوقعة، من شهدها معه من ملوك الأندلس وأمرائها، وكانوا ثلاثة عشر ملِكًا، فسلَّموا عليه بأمير المسلمين، وكان يُدعى بالأمير.

وضرب السِّكَّة من يومئذ وجدَّدها، ونقش ديناره «لا إله إلا الله محمَّد رسول الله» وتحت ذلك «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين»، وكتب في الدَّائرة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وكتب في الصَّفحة الأخرى: «الأمير عبد الله أمير المؤمنين العبَّاسي»، وفي الدَّائرة تاريخ ضرب الدِّينار وموضع سكِّه.

وعاد إلى مراكش، وهو على اتِّصال بإشبيلية وغيرها.

ثمَّ لم يلبث أن سيَّر الجيوش إلى الأندلس، ودخل غرناطة (في السَّنة نفسها)، وفيها آخر الصَّنهاجيِّين «عبد الله بن بلكين»؛ فامتلكها وأخذ ابن بلكين معه إلى مراكش، واستولى قائد جيشه «شير بن أبي بكر» على مرسية وشاطبة ودانية، ثمَّ بلنسية وإشبيلية وبطليوس، فتمَّ له ملك الجزيرة كلّها، وشمل سلطانه المغربَيْن الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس؛ وتوفي بمراكش.

وكان حازمًا، ضابطًا لمصالح مملكته، ماضي العزيمة، معتدلَ القامة، أَسْمَرَ اللّون، نحيف الجسم، خفيف العارضين، دقيق الصَّوت، يخطب لبني العبَّاس.

وكان ابن تاشفين كثير العفو، مقرِّبًا للعلماء.

□□□ وصف المخطوط:

النُّسخة محفوظة في المكتبة الوطنيَّة الجزائريَّة، تحت رقم (371) من فهرسة فانيان بذيل شرحٍ للشَّاطبيَّة لأبي محمَّد بن سراج أبي حفص بن إبراهيم الجَعبري (ت732 هـ) المسمَّى: «كنز المعاني» بخطٍّ مغربيٍّ مقبول، بدون تاريخ، إلاَّ أنَّ الشَّرح المذكور نُسخ بتاريخ (1148هـ)، فلا تكون بعيدة عنه.

وهي في ثلاث صفحات من الحجم الكبير، في كلِّ صفحة 42 سطرًا، وفي آخر هذا المجموع طِلَّسمات وتقييدات مختلفة.

□□□ نسبة الرِّسالة:

لم يذكر أحد ممَّن ترجم للإمام الطَّرطوشي ـ ممَّن وقفت عليه ـ أنَّ له رسالةً إلى يوسف بن تاشفين إلاَّ أنَّه يشتهر عنه أنَّه كان إمامًا ناصحًا للرُّعاة والرَّعيَّة بلسانه وقلمه.

والأمور الَّتي تثبت بها صحَّة هذه الرِّسالة للطرطوشي هي:

□ ما كتب في أوَّلها تصريحًا أنَّها له، وأنَّه كان في الإسكندريَّة عند كتابتها؛ وهو قد استوطن الإسكندريَّة دهرًا.

□ ما نقله أبو عبد الله بن الأزرق في كتابه «بدائع السلك في طبائع الملك» من أنَّ الطُّرطوشي أرسل رسالةً إلى يوسف بن تاشفين، ونقل قطعةً منها أشرت إليها في النَّصِّ وصحّحت بالمقابلة عليها عدَّة أخطاء وتصحيفات.

□ كُتبت الرِّسالة بأسلوب هو نفسه الَّذي في «سراج الملوك» للمؤلِّف، خاصَّةً في المقدِّمة في مواعظ الملوك.

** **

ملاحظة:

يلاحظ في الرِّسالة شيءٌ من العتاب الشَّديد! وليس لقائل أن يقول: إنَّها لا تشبه كلام العلماء، أو إنَّها ممَّن لا يُحسن النُّصحَ، ولكن ذلك للعلاقة بين المخاطَب والمخاطِب من عظيم المودَّة والتَّبجيل، ومن قرأ سيرة الرَّجُلَيْن عرف مناسبة العتاب للمقام.



وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله:

هذا كتاب العالم العلاَّمة الوليُّ الصَّالح الغوث[1]، النَّاصح، سيدي أبي بكر محمَّد بن الوليد النهري الطُّرطُوش، كتبه من ثغر الاسكندريَّه إلى الأمير العادل أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، رحمهما الله ورضي عنهما ونفعنا بهما، آمين.

وهو :...

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله.

من: محمَّد بن الوليد الفهري الطُّرطُوشي.

إلى: الأمير أبي يعقوب بن تاشفين.

سلامٌ عليكم، أمَّا بعد:

فإنِّي أحمَد الله إليك الَّذي لا إله إلاَّ هو وأشكره لديك كثيرًا[2] كما هو أهله [ ][3]، من مواعظه وحِكمه ما إن أخذتَ به نجوتَ من عظيم ما ركبت، إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل.

قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾[4] الآية [ص].

(1) من كلام أحد النساخ، و هي تتنافى مع خالص التوحيد؛ إذ لا يستغاث إلا بالله عزّ وجلّ، والطرطوشي نفسه لا يرضى بذلك؛ فهو صاحب كتاب «البدع و الحوادث» فطالعه.

(2) كذا بالأصل.

(3) كلمة غير مقروءة بالأصل.

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: أتعلمون من الخليفة؟ هو الَّذي يقضي بكتاب الله عزّ وجلّ ويشفق على الرَّعيَّة شفقةَ الرَّجل على أهله[5].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [الحج: 41].

فمن مُكِّن له في الأرض وآتاه الله تعالى سلطانًا ولم يفعل ما أمره الله به في هذه الآية خفنا عليه ألاَّ يكون من أهلها؛ لأنَّ الله تعالى وصف هذه الأمَّة إذا[6] فتح الله تعالى عليهم الأرض وأهلك عدوَّهم؛ بإقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

وقال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْ أَحَدٍ يَلِي عَمَلاً أَوْ قَالَ سُلْطَانًا إِلاَّ اهْتَزَّ بِهِ الصِّرَاطُ حِينَ يَرْكَبُهُ حَتَّى يَزُولَ كُلُّ عَظْمٍ[7] مِنْ حَقِّهِ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَجَا، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا هَوَى سَبْعِينَ خَرِيفًا»**.

فلمَّا بلغ ذلك عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال:

(4) في الأصل: فيها اختصار من النَّاسخ، ويستبعد أن يكون من الطَّرطوشي؛ لأنَّ غرض الرِّسالة الوعظ ولا يحسن في هذا الغرض قول الآية من كذا إلى كذا.

(5) «الأموال» لأبي عبيد القاسم (09)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (240) بإسناد واه؛ ورد في «عجائب الآثار» للجبرتي (1/18)، إلاَّ أنَّه عن سفيان الثَّوري.

(6) في الأصل: «إذ».

(7) في الأصل: عظيم، والتَّصحيح من الطَّبراني.

«وَمَنْ يَرْغَبُ فِي العَمَلِ[8] بعد هذا، فقال له أبو ذرٍّ رضي الله عنه: «مَنْ سَلَبَ اللَّهُ أَنْفَهُ وَأَصْعَرَ خَدَّهُ»[9].

وروي أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ المُسْلِمِينَ فَيَبِيت وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**»[10].

وروي أنَّ رسول الله ﷺ قال للعبَّاس عمِّه لَمَّا قال له: أمِّرني على إمارة! فقال له رسول الله ﷺ: «**يَا عَبَّاسُ! يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ! نَفْسٌ تُحْيِيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لاَ تُحْصِيهَا**»[11].

إنَّ الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة؛ فإن استطعت ألاَّ تكون أميرًا فافعل[12][13].

وروي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**[14]، **والرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَمَسْؤُولٌ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[15][16].

ولقد بلغ هذا من نفوس الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والخلفاء الرَّاشدين والأئمَّة المجتهدين ـ رحمهم الله ـ مبلغًا ذُهِلت له عقولهم وطاشت حُلومهم.

فروي أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه مرَّ بطريق مكَّة؛ فأبصر راعيًا يرعى بمكان جدب، فناداه: يا راعٍ! قد رأيت مكانًا هو أخصب من مكانك هذا، فالحق به، ثمَّ قال: «**كُلُّ رَاعٍ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**[17]».

وقال عليٌّ رضي الله عنه: رأيت عمر بن الخطَّاب بغداة على نجيب[18] فقلت: إلى أين؟ فقال: بعير من إبل الصَّدقة قد ضلَّ، وأنا أطلبه، فقلت: لقد أذللت الخلفاء بعدك يا أمير المؤمنين! فقال: لا تلمني يا أبا الحسن! فوالَّذي بعث محمَّدًا بالنُّبوَّة لو أنَّ سُخيلة[19] ذهبت بشاطئ الفرات لأخذت بها حسرة يوم القيامة إلاَّ أنَّه لا حرمة لوالٍ ضيَّعَ المسلمين».

فيا أبا يعقوب! لقد بُليتَ بأمر لو حملته

(8) المراد به: تولِّي أمرًا من أمور المسلمين.

(9) رواه البيهقي في «الشعب» (20/6)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (1305) عن بشر بن عاصم عن أبيه، وأخرجه عبد بن حميد في «مسنده» (430)، وقوَّاه الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (2148).

(10) رواه البخاري (7151)، ومسلم (142) عن معقل بن يسار رضي الله عنه، وفيهما «فيموت» بدل «فيبيت».

(11) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (96/10) عن جابر متَّصلاً، ومن رواية ابن المنكدر مرسلاً، وأخرجه الخلال في «السنة» (70)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (568/7) مرسلا، قال البيهقي: «هذا هو المحفوظ مرسل»، لكن بلفظ «نفس تنجيها خير ..»؛ وفي «الشُّعب» (7417)، هكذا من غير زيادة، وقال العراقي في «تخريج الإحياء»: «أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا معضلا بغير إسناد».

(12) في الأصل: افعل.

(13) هذه الزِّيادة رواها: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (439/48)، «السير» (430/8)، المقدسي في «التوابين» (ص167).

(14) في الأصل: «راعيته» وهو خطأ.

(15) في الأصل: «راعيته» وهو خطأ.

(16) رواه البخاري (5200)، ومسلم (1829)، وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(17) في الأصل: «راعيته» وهو خطأ.

(18) النَّجيب: من الإبل، وجمعه نجب بضمَّتين ونجائب، قال الأزهري: هي عتاقها التي يسابق عليها [«مختار الصحاح» (646)].

(19) السخيلة: تصغير سخلة. «والسَّخلة لولد الغنم من الضَّأن والمعز ساعة وضعه ذكرًا كان أو أنثى». [«مختار الصحاح» (290)].

السَّموات لانفطرت، ولو حملته النُّجوم لانكدرت، ولو حملته الأرض والجبال لتزلزلت وتَدَكْدَكَتْ، إنَّك حملت الأمانة الَّتي عُرضت على السَّموات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشفقن منها.

يروى أنَّ آدم عليه السلام لَمَّا استخلفه الله تعالى في الأرض على ذرِّيته وما فيها من الأنعام، وعهد إليه عهودًا أمره فيها ونهاه فقام فيها بأمر الله سبحانه إلى أن حضرته الوفاة، فسأل اللهَ أن يُعْلِمَهُ مَنْ يستخلفه ويقلِّده من الأمانة ما قلَّده فأمره أن يعرض ذلك على السَّموات بالشَّرط الَّذي أخذ عليه من الثَّواب إن أطاع، ومن العقاب إن عصى، فَأَبَيْنَ أن يقبلنه شفقًا من عقابه، ثمَّ أمره أن يعرضه على الأرض والجبال؛ فَأَبَينهُ أيضًا، ثمَّ أمره أن يعرضه على ولده، فقبله ولده على شرط أنَّ له الثَّواب إن أطاع والعقاب إن عصى، فوبَّخه الله تعالى على مسارعته إلى قبول ذلك، فقال: وحملها الإنسان إنَّه كان ظلومًا ـ لنفسه ـ، جهولاً ـ بعذابه وما تقلَّده لربِّه ـ وكان العَرض تخييرًا لا إيجابًا.

وروي أنَّ عمر بن عبد العزيز رحمه الله لَمَّا أَفْضَتْ إليه الخلافةُ سمعوا في منزله بكاءً عاليًا؛ فسُئل عن البكاء: فقيل: إنَّ عمر خيَّر جواريه فقال: نزل بي أمرٌ شغلني عنكنَّ؛ فمن أحبَّت أن أُعتقها أَعتقتها، ومن أحبَّت أن أُمسكها لم يكن لها نصيبٌ منِّي، قال: فَبَكَيْنَ يَأْسًا منه، ثمَّ دعا أفاضل المسلمين بزمانه[20] وعلمائهم في وقته؛ منهم سالم بن عبد الله، ومحمَّد ابن كعب، ورجاء بن حيوة؛ فقال لهم: إنِّي قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا عليَّ.

ـ افَعَدَّ الخلافةَ بلاءً؛ وأنت ونُظراؤك تَعُدُّونَ هذا البلاء نعمة![21].

فقال له سالم بن عبد الله: يا أمير المؤمنين! إنْ أردت النَّجاة من عذاب الله فصم على[22] الدُّنيا، وليكن فطرك فيها الموت.

وقال له محمَّد بن كعب: إنْ أردت النَّجاة من عذاب الله؛ فليكن كبير المسلمين لك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم ولدًا، فبَرَّ أباك، وارحم أخاك، وحُنَّ على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إنْ أردت النَّجاة من عذاب الله غدًا؛ فأحبَّ للنَّاس ما تحبُّ لنفسك، ثمَّ مُتْ مَتَى شِئْتَ، وإنِّي لأخاف عليك أشدَّ الخوف[23].

فاتَّق الله يا أبا يعقوب! في أمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم فإنَّ لك مع الله تعالى موقفًا يُسَائِلُك عنهم شخصًا شخصًا، ذكرًا وأنثى، صغيرًا وكبيرًا، حرًّا وعبدًا، مسلمًا وذميًّا، فَأَعِدَّ لذلك المقام كلامًا، ولذلك السُّؤال جوابًا، فوالَّذي نفسي بيده! إنَّ ذلك لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون.

(20) في الأصل: «بأزمانه» وهو تصحيف.

(21) هذا من كلام الفضيل بن عياض لهارون الرَّشيد في موعظته له عندما قصَّ عليه حديث عمر بن عبد العزيز مع جواريه وعرَّض به هنا الطُّرطوشي ليوسف ابن تاشفين، وفيه دليل أنَّه اقتبس هذه الرِّواية ممَّا جرى بين الفضيل وهارون والفضل بن الرَّبيع، وسيأتي تخريجها.

(22) كذا بالأصل ولعلَّها أن تكون «عن».

(23) «حلية الأولياء» (8/107)، «تاريخ دمشق» (48/439).

وروي[24] عن عبد الله بن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ يَخْلُو بِهِ رَبُّهُ**[25] **لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ**»[26].

«**وَلاَ تَزُولُ**[27] **قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسَةٍ؛ عَمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**»[28].

واعلم يا أبا يعقوب! بأنَّه لا يزيد فرخ في ولايتك ومدى سلطانك وطول عمرك إلاَّ كنت المسؤول عنه والمرتهن بجريرته[29]، وكذلك لا يشرب فيها جرعة مسكر إلاَّ وأنت المسؤول عنها، ولا ينتهك فيها عرض امرئ مسلم إلاَّ وأنت المطالب به، ولا يتعامل فيها بالرِّبا إلاَّ وأنت المأخوذ به، وكذلك سائر المظالم، وكلُّ حرمة انتهكت من حرمات الله تعالى فعُهدتها عليك؛ لأنك قادر على تغييرها، فأمَّا ما خفي من ذلك، ولم يكن ظاهرًا يراه المسلمون، فأنت المبرَّأ منه، إن شاء الله تعالى.

وقد خاف أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أن يُطالَب ببعير من إبل الصَّدقة، وإنما هو البعير للمسلمين، فركب على بعيره، وجعل يطلبه بنفسه.

ولا عذر لك عند الله تعالى «لم يبلغني»[30] فإنَّك إذا احتجبت فكيف تعلمه وتراه، قال الله تعالى: ﴿**كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة: 79]، من تركهم الإنكار، وإنَّما قاله لقوم سخط الله عليهم، هذا بين الأَكْفَاء والنُّظراء، فما ظنك بين الولاة والأمراء؟! قال الله تعالى: ﴿**يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا**﴾ [الكهف: 49] الآية.

جاء في التفسير[31]: «الصَّغيرة التَّبسُّم والكبيرة الضَّحك».

ـ ولقد بلغني أنَّ عبد الله العمري لَمَّا حجَّ؛

(24) السياق يوهم أنَّ الرِّواية هنا كلُّها حديث واحد، ولعلَّه جمع بينهما لمقام الوعظ، فالحديث الأوَّل عن عدي ابن حاتم، والثَّاني عن ابن مسعود.

(25) في الأصل: «يخلو بربه»، والظاهر أنَّها خطأ، والتَّصحيح من رواية الدَّارقطني (انظر ما يأتي).

(26) وتمامه: «**فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»، بألفاظ، رواه البخاري (1413)، ومسلم (1016)، والتِّرمذي (2415)، ابن ماجة (185)، جميعهم عن عدي بن حاتم، ولفظ المصنِّف «يخلو» بدل «سيكلمه» قد أخرجها الدَّارقطني في كتاب «الرُّؤية» (198) عن عدي بن حاتم.

(27) بالأصل: «ولا تزال».

(28) أخرجه الترمذي (2417)، والبيهقي في «الشعب» (1784)، كلاهما عن ابن عمر يرويه عن ابن مسعود به، وقد سقط لفظ «ابن مسعود» من النُّسخة، لعلَّ النَّاسخ حسبها وَهْمًا فأسقطها، و حسَّنه العلاَّمة الألباني في «صحيح الجامع» (7299).

(29) في «مختار الصحاح»: «جرَّ عليهم جريرة أي جنى عليهم جناية» (ص99).

(30) أي قولك: لم يبلغني.

(31) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (13893)، و«الجامع» للقرطبي (419/10)، و«الدر المنثور» للسيوطي (401/5)، وهو عن ابن عباس رضي الله عنه.

لقي هارون الرَّشيد في الطَّواف، فقال: يا هارون! فنظر إليه الرَّشيد؛ فعرفه، فقال: لبَّيك يا عمَّاه! قال: كم ترى ههنا من الخلق؟ فقال: لا يحصيهم إلاَّ الله تعالى، قال: فاعلم أيُّها الرَّجل أنَّ كلَّ واحد منهم يُسأل عن خاصَّة نفسه، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلِّهم؛ فانظر كيف تكون، فبكى هارون بكاءً شديدًا؛ فجعلوا يعطونه منديلاً منديلاً يمسح دموعه.

قال له: والله! يا هارون! إنَّ الرَّجل ليُسرف في مال نفسه؛ فيستحقُّ الحَجْر عليه، فكيف فيمن يسرف في مال المسلمين؟!

ولَمَّا دخل طاوس اليماني على سليمان ابن عبد الملك ؛ قال: يا أمير المؤمنين! هل تدري من أشدُّ النَّاس عذابًا يوم القيامة؟ قال سليمان: قل، فقال: أشدُّ النَّاس عذابًا يوم القيامة من أشركه في ملكه فَجَارَ في حكمه، فاستلقى سليمان على سريره باكيًا، فما زال باكيًا حتَّى قام عنه جلساؤه.

ـ وقال أبو بكر الصِّدِّيق ﵁ : إنَّ الملك إذا ملك زهده في ماله ورغبه في مال غيره، وأُشرب قلبه الإشفاق من الفقر، فهو يسخط على القليل و يحسد على الكثير حتَّى إذا قضى الله نَحْبَه حاسبه بأشدِّ حسابه وأقلِّ عفوه.

فاحذر يا أبا يعقوب! أن ترِد على جنَّة عرضها السَّموات والأرض؛ فلا يكون لك فيها موقف قدم، أعاذنا الله وإيَّاك من هذا الموقف.

[[32]] ولقد بلغني يا أبا يعقوب! أنَّك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطِّين واتَّخذت من دونهم حجابًا وأنَّ صاحب الحاجة لَيَظَلُّ يومَه ببابك فما يلقاك، كأنَّك لم تسمع قول الله ﷿: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ﴾ [الفرقان : 7]، قال الحسن: لا ، والله! ما كان رسول الله ﷺ تغلق دونه الحُجُب (ولا يُغدى عليه بالجِفَان)[33] ولا يُراح عليه بها، ولكنَّه كان بارزًا؛ من أراد أن يلقى رسول الله ﷺ لقيه، وكان يجلس بالأرض، ويوضع طعامه بالأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويُردِف معه عبدَه ويلعَق[34] أصابعه عند فراغه من أكله، وكان يقول: «**مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

ـ قال الحسن: فما أكثر الرَّاغبين عن سنَّته التَّاركين لها.

ـ وكان عمر بن الخطَّاب ﵁ يأخذ دِرَّتَهُ[35]، ويمشي في الأسواق، ويتفقَّد أمر رعيَّته، وكان يَعُسُّ ليلاً في سكك المدينة مع عبد الرَّحمن ابن عوف وغيره من الصَّحابة ﵃ يحفظون عوراتِ المسلمين[36].

(32) ما بين العارضتين نقله أبو عبد الله بن الأزرق في كتابه «بدائع السلك».

(33) بالأصل: «ولا يغدوا عليه ولا يراح عليه» والتَّصحيح من «بدائع السلك».

(34) بالأصل: «يعلق»، والتصحيح من «بدائع السلك».

(35) «الدرة»: بالكسر التي يضرب بها. [«مختار الصحاح» (ص 202)].

(36) وقال ابن سعد: «وهو أول من عس في عمله في المدينة وحمل الدرة وأدَّب بها» (3/202)، وقال الكتاني: «وفي زمن عمر كان يتولى العسس بنفسه ويستصحب معه أسلم مولاه وربما استصحب معه عبد الرحمن ابن عوف»، انظر: «التراتيب الإدارية» (ص245).

فرُوي عنه أنَّه استعمل سعد بن أبي وقَّاص على الكوفة، فبلغه أنَّ سعدًا اتَّخذ قصرًا وجعل عليه بابًا وقال: انقطع الصّويت[37]، فأرسل إليه محمَّدَ بنَ مسلمة؛ وقال: ائت سعدًا فأحرق عليه بابه[38]، فأتى الكوفة، فأخرج زنده[39] واستوقد[40] ناره، ثم أحرق الباب، فجعل سعد يعتذر ويحلف بالله ما قال، فقال له محمَّد بن مسلمة: «نفعل ما أمرنا به ويُروي عنك القول»[41] [42]].

يا أبا يعقوب!... ولقد بلغني أنَّك استأثرت عن المسلمين بالحظِّ الوافر من حطام الدُّنيا وزخرفها فلبست النَّاعم وتمتَّعت بلذَّاتها وشهواتها! أو لم تسمعه سبحانه يقول لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: 131].

ولقد روت عائشة رضي الله عنها قالت: «لقد كان يمرُّ علينا الشَّهران والثَّلاثة، ما توقد في أبياتنا نارٌ، قيل: فما كان عيشكم؟ قالت: الأسودان؛ التَّمر والماء»[43].

ولقد روي أنَّ فاطمة رضي الله عنها قالت: خبزت رغيفًا من شعير، فجئت منه بكسرة إلى رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا فاطمة؟! فقالت: رغيف خبزته يا رسول الله! ولم تطب نفسي أن آكله حتَّى أجيئك بهذه الكسرة، فقال: «**إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ بَطْنَ أَبِيكِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**»[44].

هذا لو شركوك في خفض العيش لنهيت عنه؛ لأنَّ الله تعالى أخذ على الأئمَّة، مثل ما روي عن يوسف ﷺ أنَّه كان يأكل الشَّعير ويطعم عياله الخشكار[45] ويطعم المسلمين الحُوَّارَى[46]، وكان يجيع نفسه، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟! فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين.

وروي عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لَمَّا أفضت إليه الخلافة؛ قال: إنِّي أنزلت نفسي من مال الله تعالى منزلةَ وليِّ اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف[47].

وروي عنه أنَّه قال: أخبركم بما يحلُّ من مال الله سبحانه؛ أستحل منه حُلَّتين؛ حُلة الشِّتاء وحلَّة القيظ، وما أحجُّ عليه وأعتمر وقوتي وقوت

(37) بالأصل: التصويت، وفي «بدائع السلك»: «انقطع عني الصويت»، وهو المحفوظ في الآثار.

(38) في «البدائع»: «بابا» وهو خطأ.

(39) الزند هو: العود الذي يقدح به النَّار [«مختار الصحاح» (ص276)].

(40) في بعض الروايات: «أستورى».

(41) في الأصل: «تفعل ما أمرتك به وتوري عنه القول»، والتَّصحيح من «بدائع السلك».

(42) أحمد في «المسند» (390)، «كنز العمال» (14331)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (895) عن عباية بن رفاعة بإسناد ضعيف.

(43) البخاري (6459)، وغيره.

(44) رواه أحمد (13246)، والطبراني في «الكبير» (259/1)، واللَّفظ له بالزيادة، كما في «مجمع الزوائد» (182/3)، وقال: «ورجالهما ثقات»، وفي كليهما عن أنس، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (1899).

(45) هو رديء الدقيق.

(46) الحوارى: بالضم وتشديد الواو، مقصور؛ ما حُوِّرَ من الطَّعام أي بيِّض، وهذا دقيق حوارى [«مختار الصحاح» (ص 161)]، وانظر: «التراتيب الإدارية» للكتاني (ص103).

(47) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (1538/4)، وابن سعد في «الطبقات» (76/3).

عيالي كقوت الرَّجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم، ثمَّ أنا بعدُ رجلٌ من المسلمين يصيبني ما أصابهم[48].

فكيف والفقراء ببابك يتضاغون، وذوو الحاجات يتردَّدون، وأهل الدُّيون والغُرْمْ في السُّجون محبوسون مأسورون، وأموال المسلمين تحت يدك وفي قبضتك، أما سمعت أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِوَرَثَتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ كَلاًّ فَعَلَيْنَا**»[49].

أما سمعت قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ**﴾... الآية [التوبة: 60].

يا أبا يعقوب!

إنَّه قد كبُرت السِّنَّ، وانحلَّت القوَّة، واشتعل الرَّأس شيبًا، وارتحلت الدُّنيا مدبرة، وجاءت الآخرة مقبلة، وحان الفراق، والتفَّت السَّاق بالسَّاق، وجاءت سكرة الموت بالحقِّ...

فالبدار البدار إلى حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم بعده، وصحَّة لا سَقَمَ فيها، قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ**﴾ الآية [آل عمران: 169][50] انتهى.

⌘ ⌘ ⌘



صورة لورقة من المخطوط



(48) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (33584)، وأبو عبيد في «الأموال» (ص281).

(49) البخاري (5371)، مسلم (1619)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيهما: «ومن ترك كلاًّ فإلينا».

(50) نهاية النُّسخة تُوهم أنَّ فيها سقطًا، ولكن مَن أمعن النَّظر وأنعم الفكر علم أنَّ الطرطوشي يحثُّ ابن تاشفين على القتال في سبيل الله وطلب ما عند الله بالشَّهادة وذلك من براعة الختام، فرحمهما الله، والحمد لله ربِّ العالمين.



الصَّواعقُ والرُّعودُ
في تحذير الأمَّة المسلمة من التَّشبُّه بالنَّصارى واليَهُود

أبو مسلم الزعكري

اليمن

مالي أرى الشَّرَّ في الأوطان ينهمرُ ... كأنَّه في رُبَى أوطاننا مطَرُ

مالي أرى الشَّرَّ صار الجُلُّ يعشقُه ... وأصبح الحقُّ في الأوساط يُحتقَرُ

مالي أرى أمَّة الإسلام قد عصَفَت ... بها الضَّلالاتُ واستشرى بها الضَّررُ

إنِّي إذا نَسْنَسَتْ في العقل خاطرةٌ ... بمجد أسلافِنا ينتابُني الكدَرُ

أنقلُ الفكرَ في أوساط حاضرِنا ... فلا أرى فارساً للحقِّ ينتصِرُ

وأفتحُ العينَ لكن لا أرى أحداً ... لا سعدُ لا خالدٌ لا عَمْرُو لا عُمَرُ

فتدمَعُ العينُ من جرَّاء مِحْنَتِنَا ... وقاني اللَّون في الخدَّين ينحدِرُ

أوَّاه أوَّاه كم في القَلب من كمَدٍ ... تكاد من حرِّهِ الأحشاءُ تنصهرُ

فالجُلُّ من أمَّتي قد صار متَّبعاً ... منهاجَ من بالإله الحقِّ قد كفرُوا

أيُتْرَك المنهجُ الأسمى بلاخجلٍ ... ويُقتَفى نهجُ من ضلُّوا ومن فجرُوا

إنَّا لنخشى مِن الرَّحمن بطشتَه ... وأن يحُلَّ بنا يا قومَنا الغِيَرُ

فاللّهُ يغضبُ أن تؤتى محارمُه ... وغضبَةُ اللّه لا يقوَى لها البشَرُ

فاللّهُ يا أمَّتي في الذِّكر حذَّرنا ... من نهجهم وبذا قد جاءنا الخبَرُ

عن الرَّسول بأنَّا لا نقلِّدُهم ... واللّه قد قال عنهم إنَّهُم حُمُرُ

فما لنَا نقتفِي آثار من لُعِنوا ... أمَا لكُم قومَنا سمعٌ ولا بصَرُ

يا أمَّتي لا تكوني في الدُّنا ذنَبًا ... للكافرين فإنَّ الذَّيلَ يُحتقَرُ

فأنتِ رأسٌ فلا ترضَي بذا بدلاً ... فالمجدُ بالمال والأرواحِ يُمتهَرُ

والمجدُ يا أمَّتي نهْبٌ لسالبه ... فَلتزحَفِي نحوَه يا أمَّتي البكَرُ

ولا تخافي من الأوغاد قاطبةً ... فهل يخافُ أنينَ البومَة النَّمِرُ

وجَدِّدي العزمَ فالأرواحُ مقبلةٌ ... على الهدى ونفُوس الزَّيغ تحتضرُ

فامضي على عجَلٍ في نشر شِرْعَتِنا ... فإنَّنا معشرٌ بالدِّين ننتصرُ

إنَّ الفلاحَ كتابَ الله نتْبَعُه ... وسنةً وبهذا الخَيْر نفتخِرُ

فَدينُنا كضياء الشَّمس رَوْنَقُه ... به الضَّلالاتُ والظّلْمَاءُ تنتحِرُ

لابدَّ أن تُنجبي يا أمَّتي بطَلاً ... في كَفِّه النَّصرُ والتَّمكينُ والظَّفَرُ

فكلُّنا ثقةٌ بالله أنَّ لَكِ ... يا أمَّتي عودةً يأتي بها القَدَرُ

تذكَّري عِزَّةَ الأسلافِ واعتبري ... فذِكْرُهم فيه للمُستَقْرئ العِبَرُ

كانوا إذا الخَطْبُ ناداهُم تَخالُهُمُ ... كأنَّما الجنُّ في الهيجَاء قد حضَرُوا

راياتُهم خفقَت في كلِّ ناحيةٍ ... عن نُصرة الدِّين ما حادوا ولا فتَرُوا

وخيلُهم كان عِزُّ النَّصر يَقْدُمُها ... وجيشُهم كان فيه الموتُ والشَّرَرُ

كأنَّه موجُ بحرٍ صار منتصباً ... أو جَنَحُ ليلٍ على الأرجَاء ينتَشِرُ

وإن أتَى اللَّيلُ تَلْقَى الكُلَّ دَيْدَنُهُم ... عبادة الله فاللَّذَّاتِ قد هجَرُوا

سَكينةُ الله تغشاهُم علانيَةً ... إن رتَّلُوا في الدُّجى القرآنَ أو ذكَرُوا

أولئك الرَّكبُ وفَّوا العَهْدَ وارتحلُوا ... تاريخُهم جوهرٌ أمجادُهم دُرَرُ

والخيرُ لازال فينَا كامناً ولنَا ... وعدٌ منَ الله أنَّا سوفَ ننتصِرُ

لابدَّ من غضبَةٍ لله نغضَبُها ... تظَلُّ منها جيوشُ الكُفر تنْدَحِرُ

ترقَّبُوا أيُّها الكفَّار عاصفةً ... من الصَّناديد لا تُبْقِي ولا تَذَرُ



تربية الطِّفل على الأذكار النَّبويَّة

••• الجزء الثاني •••

عثمان عبد الماجد
مرحلة الدكتوراه في كلية التربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

الأسلوب الرَّابع ـ التَّعويد:

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وممَّا يحتاج إليه الطِّفل غاية الاحتياج: الاعتناء بأمر خُلُقِه، **فإنَّه ينشأ على ما عوَّده المُرَبِّي في صغره** من غضب، وعجلة، وطيش، وحِدَّة، وجشع، فيصعب عليه في كِبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفاتٍ وهيئاتٍ راسخةً له، فلو تحرَّز منها غاية التَّحرُّز فضحَتْه ولابد يومًا ما؛ ولهذا تجد أكثر النَّاس منحرفةً أخلاقُهم وذلك من قِبل التَّربية الَّتي نشأوا عليها»[1].

○ **أُسس ومبادئ تكوين العادة الحسنة:**

أ/ إيجاد الدَّافع الذَّاتي وتنميته.

ب/ الممارسة والتَّطبيق.

ج/ التَّكرار.

د/ التَّدرُّج.

هـ/ تحقيق مبدأ القدوة الصَّالحة.

و/ وقاية الطفل من أسباب الفساد والانحراف.

○ **دور التَّعويد في تربية الطِّفل على الأذكار النَّبويَّة:**

أوَّلاً: أن يبدأ المربُّون في تعليم الأذكار بتهيئة الطِّفل تهيئةً نفسيَّةً وعقليَّةً؛ لتقبُّل عمليَّة تلقين الذِّكر، وذلك بأن يتمَّ تحبيب هذه الأذكار إليه بشتى الوسائل بما يتناسب مع تفكيره وعمره العقلي، فأسلوب التَّرغيب له دوره الفاعل في هذه المرحلة.

ثانيًا: أن يبادر المربِّي ـ وخصوصًا الوالدان ـ بتعليم الطِّفل منذ أن يتهيَّأ لذلك ـ من بداية مرحلة الحضانة ـ بعض أنواع الذِّكر، مع مراعاة تلقينه لألفاظها بصفة صحيحة؛ لأنَّه يُراد منه أن يتعوَّدها، وأن يتمَّ ذلك بتدرُّجٍ يترقَّى به المتربِّي شيئًا فشيئًا، ومتى كان الأساس صحيحًا استقام البناء.

(1) ابن قيم الجوزية، «**تحفة المودود**» (ص209) ـ بتصرف.

ثالثًا: أن يستمرَّ المربِّي في تكرار تلك الأذكار، ويطلب من الطِّفل ذلك بما لا يؤدِّي إلى الملل والسَّآمة، ويحثُّ من حوله من كبار الإخوة والأقارب على ترديدها أمامه، وبهذا يتحقَّق أمران، أوَّلهما: التَّأكُّد من سلامة ما ينطق به الطِّفل من الأذكار، وثانيهما: أن يتمَّ ترسيخ تلكم الأذكار المباركة لدى الطِّفل فيألفها، ويتعوَّدها.

رابعًا: أن يتوجَّه المربُّون بمزيد العناية لتعويد النَّاشئة على كتاب الله عز وجل، بأن يبادروا إلى تلقين الطِّفل كلام الله عز وجل، ويُبدأ معه بقصار السُّور والآيات الَّتي يمكنه حفظها، ومع كون المربِّي ومن كان حول الطِّفل من الوالدين وكبار الإخوة حريصين على الاهتمام بالقرآن وحفظه وتجويده، وتخصيصهم لذلك أوقاتًا يتفرَّغون فيها لهذا المقصد؛ فإنَّ الطِّفل ينشأ ـ بإذن الله ـ على تعظيم الكتاب العظيم، والعناية به خاصَّةً إذا عمد أولئك المربُّون إلى التَّنافس في ذلك واستخدام الوسائل المتعدِّدة في سبيل ذلك مثل: الحوافز بأنواعها، والقصص التَّربوي، والحوار، والوسائل التِّقنيَّة الحديثة ممَّا يوصل إلى تحقيق هذه الغاية النَّبيلة.

«ولقد كان البدء بتعليم القرآن واستظهاره مسلكًا اتَّفق عليه المسلمون في جميع أمصارهم؛ لِمَا للقرآن من أثرٍ في ترسيخ الإسلام وعقائده ومفاهيمه في قلوب الأطفال منذ الصِّغر؛ وليصير أصلاً لِمَا سواه من علوم وملكات، ولعلَّ هذا الاهتمام من أسرار نبوغ السَّلف الصَّالح في العلم وتقدُّمهم الحضاري»[(2)].

خامسًا: أن يقوم الوالدان والمربُّون بمكافأة الطِّفل الَّذي بدأ في اعتياد الذِّكر بتشجيعه والثَّناء عليه والاحتفاء به ممَّا يكون دافعًا له نحو الثَّبات والمحافظة على هذا الأمر، وفي المقابل ينبغي تعاهد من أهمل الأذكار والأدعية بالحثِّ والتَّرغيب والتَّحفيز والحوار، فإذا ظهرت لدى الطِّفل بعض السُّلوكيَّات الخاطئة الَّتي تصرفه عن اعتياد الفضائل؛ فإنَّ الواجب على المربِّي أن يُبادر إلى معرفة أسبابها والسَّعي في علاج الطِّفل ووقايته من أسباب الفساد.

الأسلوب الخامس ـ الحوار:

○ دور الحوار في تربية الطِّفل على الأذكار النَّبويَّة:

للحوار التَّربوي ـ باعتباره أداةً تربويَّة فعَّالة ـ أهميَّةٌ كبيرة في جانب تربية الأطفال والتَّعامل معهم، ومن هذا المنطلق يمكن للمربِّي توظيفه من أجل الوصول إلى هدف تربية الطِّفل على الأذكار النَّبويَّة عن طريق سلوك التَّطبيقات الآتية:

أوَّلاً: أن يسلك المربُّون ـ وخاصَّة الوالدين ـ

(2) أحمد الحليبي: «**ثقافة الطِّفل المسلم**» (ص291).



سبيل الحوار مع الطّفل في مرحلةٍ مبكّرَةٍ، أي من حين أن يتهيّأ الطّفل وينضج لممارسته، وهو في هذه المرحلة سيكون بأسلوب ميسّر ومباشر، ويمكن من خلاله ممارسة التّلقين لأنواع الذّكر.

ثانيًا: أن يكون أسلوب الحوار مسلكًا تربويًّا عامًّا في التّعامل مع الطّفل وتربيته، فلا يقتصر الحوار على جوانب دون أخرى، وينبغي أن لا يؤثّر على هذا المسلك ما قد يصدر من الطّفل من ضعف التّجاوب أو الخطأ في الجواب أثناء الحوار، بل ينبغي أن يدفع ذلك المربّي إلى مزيد الحرص على آداب الحوار وترسيخها في نفس الطّفل شيئًا فشيئًا بما يكون عونًا على تحقيق أهداف الحوار ومقاصده، وهذا يقتضي أن لا يقتصر حوار الطّفل مع أبويه فقط، بل ينبغي أن يمتدَّ ذلك للإخوة الكبار وبقيَّة الأقارب والمعلّمين وجماعة المسجد، وغيرهم من أفراد المجتمع الّذين يحتكُّ بهم الطّفل.

ثالثًا: للوصول إلى تعويد الطّفل على الذّكر؛ فإنَّ المربّي ينبغي أن يسلك في سبيل ذلك مسلكين متوازيين، أحدهما نظريٌّ والآخر عمليٌّ.

ويتمثّل الأوّل في تعليم المتربّي لتلك الأذكار النّبويَّة المتنوّعة باستخدام الحوار والتّلقين، وأمَّا المسلك الثّاني فهو تطبيق المربّي لِمَا قد علّمه للطّفل عن طريق تقديم القدوة الصَّالحة له بما يدعّم ذلك التّعليم السَّابق.

رابعًا: الحوار أسلوبٌ يصلح أن يكون وعاءً لغيره من الأساليب التّربويَّة، فمن خلاله يمكن للمربّي أن يوظّف أساليب: التّلقين، والتّدرُّج، والتّرغيب والتّرهيب، والقصَّة، وضرب الأمثال، والموعظة، واستغلال الأحداث، والإيحاء وغيرها من الأساليب الّتي يمكن تطبيقها وتقديمها للطّفل في قالبٍ حواريٍّ مناسب ومثمر.

خامسًا: من أشكال الحوار الّتي يمكن للمربّي أن يطبّقها مع الطّفل: إقامة المسابقات التّنافسيَّة بين الأطفال حول القرآن الكريم، والأذكار النّبويَّة، وذلك بأن يطرح الأب أو الأمُّ سؤالاً حول آيةٍ قرآنيَّة، أو نوعٍ من الذّكر، أو يطلب من يقوم بالأذان أو تلاوة سورة معيَّنة، ومن ثمَّ يحفّز الطّفل أو الأطفال ويستحثّهم على الجواب، وبهذا يمكن تقويم الأطفال في مدى تعلُّمهم للأذكار وكذا تحفيزهم وإثابتهم بما يدفعهم لحفظها والمداومة عليها.

سادسًا: ينبغي أن يستغلَّ الأبوان والمربُّون أوقات اجتماعهم مع أطفالهم لممارسة الحوار التّربوي، ويمكن أن تُعمر المجالس اليوميَّة: عند تناول الطّعام، وفي السَّيَّارة، وعند الخروج للنُّزهة، وفي المسجد وغيرها بتلك الحوارات النَّافعة الّتي تعلّم الطّفل ذكر ربه عَزَّوَجَلَّ، وتحثُّه عليه.

ثمَّ ننتقل إلى أسلوب آخر وهو:

الأسلوب السَّادس ـ التّرغيب والتّرهيب:

التّرغيب: هو التّشويق للحمل على فعل، أو اعتقاد، أو تصوُّر، وترك خلافه.

والتَّرهيب: هو التَّخويف للحمل على ترك فعل أو اعتقاد أو تصوُّر.

○ **دور التَّرغيب والتَّرهيب في تربية الطِّفل على الأذكار النَّبويَّة:**

يعدُّ أسلوب التَّرغيب والتَّرهيب أحد أهمِّ الأساليب التَّربويَّة في تنشئة الأطفال، ومن أجل تربية الطِّفل المسلم على عبادة ذكر الله عزوجل؛ فإنَّ المربِّي يمكنه أن يسلك التَّطبيقات التَّالية للوصول إلى تحقيق هذا الهدف:

أوَّلاً: لابدَّ للمربِّي وخاصَّة الأب والأم من التَّركيز على أسلوب التَّرغيب؛ لأنَّه الأصل في التَّعامل مع الأطفال خاصَّة في المراحل العمريَّة المبكِّرة، ولكونه يحقِّق ترسيخ تلك الأذكار والمواظبة عليها حتَّى وإن لم يعقلها ابتداءً، وفي سبيل ذلك يجب استعمال أنواع التَّرغيب المتنوِّعة مثل: الثَّناء والتَّشجيع والضَّحك والابتهاج والمداعبة والمكافآت كالحلوى والخروج للنُّزهة وتلبية الطَّلبات، وإقامة المسابقات التَّنافسيَّة ذات الجوائز المحبّبة وغير ذلك ممَّا يحثُّ الطِّفل ويدفعه لحفظ هذه الأذكار المباركة والمداومة عليها، مع ضرورة أن يكون المربِّي هو القدوة الصَّالحة فيما يحثُّ ولده عليه.

ثانيًا: إنَّ ترغيب الطِّفل في حفظ القرآن الكريم والأذكار النَّبويَّة وبذل الجهد في ذلك يستلزم أن يقترن معه بيانٌ وتوضيحٌ لآثارها المباركة في الدُّنيا والآخرة، ولا شكَّ أنَّ الطِّفل في بواكير طفولته قد لا يعقل أو يتصوَّر تمامًا ما تُثمره تلك الكلمات المباركة حتَّى وهو يحفظها، لكنَّه بمرور الوقت وباعتياده عليها سيدرك آثارها الفاضلة على نفسه وحياته وآخرته، ثمَّ هو صائرٌ - بإذن الله - إلى تذوُّق حلاوتها والتَّلذُّذ بمناجاة المولى عزوجل فلا يجد مشقَّة في ذلك، وهذا من ثمار التَّربية الصَّالحة منذ الصِّغر.

ثالثًا: بالنِّسبة لتوظيف أسلوب التَّرهيب في مجال تربية الطِّفل على ذكر الله عزوجل؛ فإنَّه يحسُن بالمربِّي أن يستخدم ذلك ابتداءً في سياق التَّحذير من الشَّيطان الرَّجيم - أعاذنا الله منه - وذلك بإفهام الطِّفل أنَّ الجنَّ والشَّياطين موجودون في كلِّ مكانٍ يوجد فيه البشر، فيحضرون مجالسهم وأكلهم وشربهم، ولا يفارقونهم إلاَّ بذكر الله عزوجل، ويستعين المربِّي على ذلك بشرح بعض الآيات القرآنيَّة مثل سورة النَّاس، والأحاديث النَّبويَّة الَّتي تبيِّن هذا الأمر، ومنها ما رواه البخاريُّ (3316) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**اكْفِتُوا صِبْيَانَكُمْ عِنْدَ المَسَاءِ؛ فَإِنَّ لِلْجِنِّ انْتِشَارًا وَخطفَةً**».

وفي «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إذ هو نام ثَلاَثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ**»، وفي ذكر الدُّخول إلى

المنزل، والخروج منه تحصينٌ من الشّياطين: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنّه سمع النّبيَّ ﷺ يقول: «**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لاَ مَبِيتَ لَكُم وَلاَ عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ**» رواه مسلم (2018).

وإلى جانب ما سبق فيجب على الآباء أن يعوِّذوا أولادهم بالقرآن والأذكار من الشّيطان والعين، وفي هذا حثٌّ بالتّطبيق العمليِّ للأطفال على المحافظة على الذِّكر، واقتداءٌ بالنّبيِّ ﷺ، فقد روى البخاري في «صحيحه» (3371) عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان النّبيُّ ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين ويقول: «**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ**».

وبهذا المسلك الجامع بين التّرهيب من الشّيطان بالتزام الأذكار، وتعويذ الأطفال بالمعوِّذات الشّرعيَّة يكون المربِّي قد استثمر كلاًّ من التّرغيب والتّرهيب في تعويد الطّفل على عبادة ذكر الله عزّ وجلّ.

وبعد هذا ننتقل إلى الأسلوب السّابع وهو:

أسلوب استغلال المواقف:

إنَّ اختيار المواقف والأوقات المناسبة للتّوجيه يسهِّل ويقلِّل من جهد العمليَّة التّربويَّة ويساعد على تحقيق الأهداف؛ وذلك لأنَّ طبيعة المتربِّي لا تكون على وتيرةٍ واحدةٍ دائمًا من حيث الاستعداد للتّوجيه والقدرة على الممارسة والتّطبيق لمضامينه.

ومن هنا يمكن أن نعرِّف استغلال المواقف باعتباره أسلوبًا من أساليب التّربية بأنّه: **أن يتحيَّن المربِّي الوقت المناسب في التّوجيه التّربوي من أجل تحقيق أهدافه مثل:**

أ - ظروف المكان.

ب - ظروف الزمان.

جـ - أحوال الطّفل النّفسيَّة والمادِّيَّة.

○ دور استغلال المواقف في تربية الطّفل على الأذكار النّبويّة:

أوّلاً: أنْ يحرص الأبوان والمربُّون على استغلال تلك المواقف والمناسبات الّتي تتكرَّر في اليوم واللّيلة، وقد شُرِع فيها نوعٌ من أنواع الذِّكر، مثل أوقات: تناول الطّعام، وعند الخلاء، وعند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما، وأذكار الصّلوات والنّوم وغيرها، وذلك بأن يتمَّ تنبيه المتربِّي على استحضار الذِّكر الوارد في موضعه، وفي هذا تطبيقٌ لأسلوب الملاحظة[3] الّذي يقوم فيه المربِّي بمتابعة الطّفل وتوجيهه وتسديده بما يحقّق أهداف التّربية الإسلاميَّة وغاياتها.

ثانيًا: أنْ يستغلَّ الأبوان والمربُّون المناسبات والأحوال العارضة - الّتي لا تتكرَّر كثيرًا - في

(3) محمود محمد غانم: «**طرق التّربية والتّعليم وتطوّرها عبر العصور الإسلاميّة وحتّى العصر الحديث**» (ص50).

تعليم الأطفال الأذكار النّبويّة، ومن تلك الأحوال الّتي شُرِع فيها الذّكر: عند نزول المطر، وهبوب الرّيح، ورؤية الهلال، وعيادة المريض، وإجابة الدّعوة، وعند الكرب، وأذكار التّهنئة والتّعزية، وغيرها ممّا يعرض للمسلم، ويستعين المربّي بأسلوب الملاحظة الآنف الذّكر على تلقين الطّفل وتعويده على الأذكار المباركة المشروعة في تلك الأحوال والأوقات.

ثالثًا: إنّ من أفضل الأساليب الّتي ينبغي توظيفها لاستغلال الأحداث والمواقف المختلفة: أسلوب الحوار؛ لأنّه يتميّز باستثارة الحواس والانفعالات الوجدانيّة واستخدام العمليّات العقليّة ممّا يُفيد في استغلال الحدث وبناء التّوجيه التّربوي السّليم.

رابعًا: ينبغي أن يكون للآباء والمربّين دورٌ في تهيئة أجواء مناسبة من أجل تحقيق هدف تربويٍّ معين، فلا يقتصر استغلال الحدث على الأمور الغائبة المنتظرة، بل يمكن المبادرة إلى تهيئة بعضها، ومثال ذلك: ترتيب الخروج للنُّزهة؛ فإنّه بمقدور المربّي أن يُهيِّء الأمر لهذا، فإذا تمّ ذلك وظّفه واستفاد منه في تعليم الأطفال الأذكار المتنوّعة الّتي ستعرض لهم في نزهتهم، مثل: ذكر النزول بالمكان، وأذكار السّفر وغيرها وهي فرصةٌ لاستذكار ومراجعة ما يحفظه الطّفل من أنواع الأذكار.

ونختم هذا المبحث بهذا الأسلوب وهو:

الأسلوب الثّامن ـ الحوافز الماديّة والمعنويّة:

الحوافز هي: «المحرّكات والبواعث الّتي تستثير النشاط عند الفرد، وتوجّهه نحو الأحسن، أو هي: إثارة رغبة الفرد في العمل على الوجه المرجو، وما يُقدّم له لإرضاء حاجاته ودوافعه الإنسانية»[4].

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «لَمَّا ذكر تعالى ما أعدّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين به، وبرُسله من العذاب والنَّكال، عطَف بذكر حال أوليائه من السُّعداء المؤمنين به، وبرُسُله، الّذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصّالحة، وهذا معنى تسمية القرآن مثاني على أصحِّ أقوال العلماء»[5].

وللسّعدي رحمه الله كلامٌ بديعٌ في تفسيرها حيث قال: «**وفيه استحباب بشارة المؤمنين، وتشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها؛ فإنّها بذلك تخفُّ وتسهل**»[6].

(4) عبد الرحمن بن علي الجهني: «**الحوافز في الإدارة المدرسيّة من منظور التّربية الإسلاميّة**» (ص10).

(5) ابن كثير: «**تفسير القرآن العظيم**» (1/58).

(6) السّعدي: «**تيسير الكريم الرحمن**» (ص47).

أمَّا الأحاديث الَّتي ورد فيها التَّحفيز فكثيرةٌ أيضًا، وثمَّة أحاديث كثيرة في جانب الأذكار النَّبويَّة تشتمل على التَّحفيز، والتَّرغيب في تلك الأذكار المباركة.

○ **دور الحوافز في تربية الطِّفل على الأذكار النَّبويَّة:**

أوَّلا: ينبغي أن يركِّز الآباء والمربُّون على الحوافز الإيجابيَّة أكثر من السَّلبيَّة؛ وذلك لأنَّ «الثَّواب أقوى وأبقى أثرًا من العقاب في عمليَّة التَّعلُّم، وهذا يعكس أهميَّة المكافأة في تدعيم الاستجابات الصَّحيحة وتثبيت التَّعلُّم»[7]، فالطِّفل في هذه المرحلة يحتاج إلى تدعيم السُّلوك الصَّحيح إيجابيًّا بالتَّبسُّم والمداعبة واللَّعب والمكافأة، ولا يعني هذا إغفال التَّحفيز السَّلبي؛ فإنَّ له دوره المهمّ عند الحاجة إليه.

ثانيًا: ينبغي أن يحرص المربُّون على عدم المبالغة واللُّجوء كثيرًا إلى الحوافز الماديَّة دون المعنوية؛ وذلك لأنَّ الطِّفل خاصَّةً في مرحلتي الحضانة والتَّمييز يحتاج كثيرًا إلى إشباع حاجاته النفسيَّة والاجتماعيَّة المتمثِّلة في توفير الحبِّ والحنان والثِّقة بالنَّفس والمشاركة الوجدانيَّة والانتماء، بواسطة التَّبسُّم والملاطفة والحوار وإتاحة الفرصة للمشاركة في الأنشطة المختلفة.

ثالثًا: ينبغي على الآباء والمربِّين أن يستثمروا أسلوب التَّحفيز في إقامة المسابقات التَّنافسيَّة بين الأطفال حول حفظ القرآن الكريم والأذكار النَّبويَّة، وأن يتمَّ في سبيل ذلك إعداد الجوائز التَّشجيعيَّة المفيدة، ومنها ما يخدم موضوع المسابقة كأن يكون ضمن الجوائز مصاحف جديدة، وكتيِّباتٌ أو مطويَّات في الأذكار؛ فإنَّ هذا ممَّا يؤكِّد تحقيق هدف المسابقة، ويحفِّز الأطفال ويرغِّبهم في مضامينه المقصودة.

رابعًا: من طرق التَّحفيز المثمرة: استغلال أوقات السَّفر والنُّزهة البرِّيَّة في قيام الأطفال الَّذين بلغوا مرحلة التَّمييز برفع الأذان والإقامة وإمامة أفراد العائلة بحيث يتمُّ تقديم أكثر الأطفال حفظًا للقرآن ليؤمَّ أهله؛ وفي هذا حافزٌ قويٌّ للطِّفل الإمام والمؤذِّن وغيرهما من الأطفال نحو حفظ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وتجويده والتَّعوُّد على العبادة، وينبغي على الأب أن يُبيِّن أنَّ تقديم الأَقْرَإ في الإمامة هو السُّنَّة؛ فقد روى البخاري في «صحيحه» عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه أنَّه قال ـ في قصَّة إسلام قومه ـ عندما صار إمامًا لهم: «فنظروا فلم يكن أحدٌ أكثر منِّي قرآنًا؛ لِما كنتُ أتلقَّى من الرُّكبان، فقدَّموني بين أيديهم وأنا ابن ستٍّ أو سبع سنين»[8].

وبهذا تنتهي أنواع الأساليب التَّربويَّة الَّتي يمكن توظيفها في تربية الأطفال على عبادة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

وبعد هذا العرض لأهمِّ الأساليب التَّربويَّة في تربية الطِّفل على ذكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّنا نختم

(7) أحمد عزَّت راجح: «**أصول علم النَّفس**» (ص226).

(8) البخاري (4302).

هذا الموضوع ببيان دور المدرسة ووسائل الإعلام في هذا الجانب.

رابعًا: دور معلّم المدرسة في البرنامج العمليّ لتربية الطّفل على الأذكار النّبويّة.

تقع على المعلّم المسؤوليّة الكبرى في العمليّة التّربويّة والتّعليميّة داخل المدرسة، فإنّ «المعلّم ركنٌ أساسيٌّ من أركان العمليّة التّربويّة، وعنصر هامٌّ من عناصر الموقف التّعليمي الّذي يتفاعل مع المتعلّم، وإذا كانت هناك مكوّنات أخرى للموقف التّعليمي إلاّ أنّ أهمّ هذه المكوّنات على الإطلاق هو المعلّم؛ لأنّه يعتبر العنصر القادر على التّأثير في بقيّة المكوّنات الأخرى، بل إنّ دوره القياديّ في العمليّة التّربويّة أو التّعليميّة يقود العناصر والمكوّنات الأخرى ليجعلها في وضع يخدم التّلميذ»[9].

ويمكن للباحث بيان دور المعلّم المؤهّل في تربية الأطفال على الأذكار النّبويّة فيما يلي:

1. أن يكون المعلّم قدوةً لتلاميذه في العناية بعبادة ذكر الله عزّ وجلّ، فيرى منه تلاميذه الأطفال ترديد آي الذّكر الحكيم والاهتمام بحفظه وتجويده، مع المحافظة على الأذكار اليوميّة وتلفُّظه بها أمامهم - بصوت مسموع - كأذكار الصّباح والمساء، وأذكار العطاس، والسّلام، والاستغفار، وكفّارة المجلس، وأنواع الدُّعاء، ومتى ما صار المعلّم رطبًا لسانه بذكر الله؛ فإنّ ذلك يكون داعيًا، وحافزًا لطلاّبه أن يسلكوا طريقته، ويألفوا الذّكر ويعتادوه.

2. أن يستخدم المعلّم أسلوب الحوار عن طريق السُّؤال والجواب في تعليم الأطفال الأذكار النّبويّة، وينبغي أن يُراعى مستوى الطُّلاّب في مخاطبتهم به، فبينما يتميّز الحوار مع طلاّب المراحل المتقدّمة كالمتوسّطة والثّانويّة بالمنطقيّة، واستثارة العقل، وعمق التّفكير، فإنّ الحوار مع أطفال المدرسة الابتدائيّة يتّسم بالسُّهولة، والوضوح، وعدم التّعقيد، كأن يقول المعلّم مثلاً: هل تعرفون الذّكر الّذي إذا قاله المسلم لم يقربه الشّيطان حتّى يُصبح؟ ويكون الجواب هو آية الكرسي ويتبعه بيان الحديث الوارد في ذلك، ثمّ يَطلب من أحد الطُّلاّب تلاوة آية الكرسي، فإذا قام بذلك أحدهم بطريقة صحيحة شكره المعلّم ودعا له بخير، وفي هذا توظيفٌ من المعلّم لأسلوبي الحوار والتّحفيز بالحوافز المناسبة، كما يمكن تضمين الحوار القصص النّبوي المتعلّق بالأذكار.

3. أن يقوم المعلّم باستغلال المواقف المختلفة وتوظيفها في تعليم الأطفال أنواع الأذكار المشروعة مع الحرص على أذكار الأمور العارضة كهبوب الرّيح، وسماع الرّعد، ونزول المطر، ورؤية المبتلى، والتّبْرِيك خوف العين، وأذكار التّهنئة والتّعزية، وعند الخروج في الرّحلات المدرسيّة، وغيرها ممّا لا يتكرّر كثيرًا، وفي هذا الأمر تذكيرٌ للأطفال، وربطٌ دائم لهم بعبادة الذّكر ممّا

(9) عبد الله عبد الحميد محمود: «**إعداد المعلّم من منظور التّربية الإسلاميّة**» (ص25). بتصرُّف.

يُرجى معه أن يعتاد أولئك الأطفال هذه الأذكار ويمارسوها بسهولة وانشراح.

4 ـ أن يسلك المعلّم سبيل التَّدرُّج في تعليم الأذكار، فيبدأ بألفاظ الذِّكر التسيرة، والسَّهلة، ويكرِّرها أمامهم، ويطلب منهم تكرارها ـ خاصَّة في المرحلة الابتدائيَّة ـ حتَّى يسهل حفظها والمداومة عليها من قِبل الطلاَّب.

5ـ أن يستعين المعلّم بالوسائل التَّعليميَّة والتِّقنية الحديثة، مثل اللَّوحات بأنواعها، والملصقات، وجهاز عرض الشَّرائح والشّفافيَّات، والتِّلفزيون التَّعليمي، وبرامج الحاسب الآلي، وغيرها، وتوظيفها في عرض الأذكار المتنوِّعة بصورة مشوِّقة للأطفال ممَّا يسهم في سرعة التَّعلُّم وثباته.

6ـ إقامة المسابقات التَّنافسيَّة حول موضوعات الأذكار حفظًا وشرحًا وتحليلاً، وأن يتمَّ التَّنسيق مع إدارة المدرسة من أجل رعايتها ودعمها بالتَّشجيع والجوائز المناسبة، وأن تكون تلك المسابقات بأشكال متنوِّعة، ومستويات متدرِّجة من أجل إشراك أكبر عدد من الطُّلاَّب فيها واستفادتهم منها.

7ـ أن يتوجَّه معلِّم العلوم الشَّرعيَّة بمزيد العناية والاهتمام لأذكار الصَّلاة؛ وذلك لكونها أعظم أركان الإسلام بعد الشَّهادتين، وهي عمود الإسلام، ولعموم التَّقصير في تعلُّم صفة الصَّلاة وأذكارها الثَّابتة والمشروعة، وأن يسلك المعلّم في سبيل ذلك ـ وفي مختلف المراحل الدِّراسيَّة ـ أنواع التَّوجيه التَّربوي: بناءً، ووقايةً، وعلاجًا.

8 ـ «إنَّ مِنَ المفيد جدًّا لمعلِّم الرِّياضيَّات على وجه الخصوص أن يطرح من خلال فنِّه ومادَّته بعض المسائل الرِّياضيَّة الواردة في الآيات القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّة الصَّحيحة المتعلّقة بالأذكار المأثورة، والأعمال الخيِّرة؛ يحاول من خلالها ربطَ النَّشء بالإيمان والعبادة، والمحافظة على ذكر الله عزَّ وجلَّ»[10].

ومن الأمثلة على ذلك: المسألة التَّالية:

ـ عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنَّ رجلاً جاء إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: السَّلام عليكم، فردَّ عليه، ثمَّ جلس، فقال: «**عَشْرٌ**»، ثمَّ جاء آخر فقال: السَّلام عليكم ورحمة الله، فردَّ عليه، ثمَّ جلس فقال: «**عِشْرُونَ**»، ثمَّ جاء آخر؛ فقال: السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليه، ثمَّ جلس؛ فقال: «**ثَلاَثُونَ**»[11].

السُّؤال:

ـ إذا سلَّم رجلٌ على إخوانه المسلمين في يومٍ أربعين مرَّة، قال في عشرين منها: السَّلام عليكم ورحمة الله، وفي العشرين الأخرى: السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فكم له من الحسنات في ذلك؟

---

(10) عبد الرزَّاق البدر: «**الفتة لمعلِّمي الرِّياضيَّات**» (ص3).

(11) أبو داود (5195)، والترمذي (2689)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (2710).

الحلُّ:

في العشرين الأولى:

20 × 20 = 400 حسنة.

في العشرين الثَّانية:

30 × 20 = 600 حسنة.

المجموع:

400 + 600 = 1000 حسنة.

9. أن يستغلَّ معلِّم العلوم الكونيَّة موضوعات المقرَّر الدِّراسي ذات العلاقة بالأذكار النَّبويَّة، مثل موضوعات: الكسوف والخسوف، والقمر، والأمطار، والرِّياح، ودراسة ظاهرة العطاس، وغيرها ممَّا تقدَّم ذكره.

10. أن يستمرَّ المعلِّمون بعد تعليمهم الأطفال الأذكار المتنوِّعة في عمليَّة المتابعة والتَّقويم؛ من أجل التَّأكُّد من تعوُّد الأطفال على هذه العبادة، ومعرفة الأخطاء الَّتي تقع منهم في ذلك والعمل على تصحيحها وتقويمها.

11. أن يتوجَّه المعلِّم بالنَّصيحة والتَّوجيه إلى زملائه من المعلِّمين، والعاملين في الإدارة المدرسيَّة الَّذين يرى منهم التَّقصير في جانب ذكر الله عزَّ وجلَّ، أو في تعليم الأطفال لهذه العبادة بما يُسهم في إصلاح الخلل، وتكثير الخير والنَّفع وتعميمه.

12 . أن يختم المعلِّم مجلس الدَّرس بدعاءٍ نافعٍ مناسبٍ للمقام . كما كان يفعله بعض السَّلف .، كأن يدعو بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح، أو يستعيذ بالله من علم لا ينفع، ونحو ذلك؛ كدعاء كفَّارة المجلس، وفي المقابل عليه أن يجعل بداية لقائه بطلاَّبه إلقاء السَّلام عليهم؛ لأنَّ ذلك يُشعرهم بمحبَّته لهم، وقربه منهم[12].

وفي الختام...

فهذه نبذة مختصرة عمَّا يمكن للمربِّي أن يسلكه من أساليب في سبيل تربية أطفالنا على عبادة ذكر الله سبحانه وتعالى، والله الموفِّق وهو الهادي إلى سواء السَّبيل.



(12) حسين بن نفاع الجابري: «**آداب المعلِّم في العمليَّة التَّعليميَّة من خلال كتاب (سير أعلام النُّبلاء) للحافظ الذَّهبي رحمه الله، وتطبيقاتها التَّربوية في المرحلة الثَّانويَّة**» (ص120).

النبراس في تصحيح كلام الناس

عمر الحاج مسعود

أخي القارئ!

هذه مجموعة أخرى من الألفاظ المتداولة بين النَّاس أنبِّه عليها مع التَّوجيه والتَّصحيح.

حَسَّنْتُ

يقول هذه العبارة من قصَّر شعر رأسه وهذَّبه.

وهذا لا حرج فيه إذا لم يتضمَّن مخالفات للشَّرع.

ويقولها من حلَق لحيته فصار عند كثير من النَّاس حسنَ الوجه جميلَه!

وهذا من كيد الشَّيطان ومكره حيث يوحي إلى بعض النَّاس أن يسمُّوا الأشياء المحرَّمة بأسماء برَّاقة مُزخرَفة، تَقبلها النُّفوسُ بل تفرح بها، كما ذكر الله عنه ما قاله لآدم عليه السلام: ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴿١٢٠﴾﴾ [طه]، فسمَّى الشَّجرة المحرَّمة على آدم عليه السلام شجرة الخلد، تَزْيينًا لها وترغيبًا فيها.

قال العلاَّمة ابن القيِّم رحمه الله:

«فهذا أوَّل المكر والكيد، ومنه ورث أتباعُه تسميةَ الأمور المحرَّمة بالأسماء الَّتي تحبُّ النُّفوسُ مسمَّياتها»[(1)].

ومعنى قول الحَلِيق «حسَّنْتُ»: أنِّي صرت حسنَ الوجه جميلَ الهيئة.

وهذه العبارة خاطئة، إذ كيف يكون كذلك وقد خالف أمر النَّبيِّ ﷺ، وفعل ما نهى عنه؟!

إنَّ إعفاء اللِّحية من خصال الفطرة وهدي السُّنَّة، قال ﷺ: «**عَشْرٌ مِنَ الفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ...**» الحديث[(2)]، و«كان رسول الله ﷺ أحسنَ النَّاس وجهًا»[(3)].

«وكان كثيرَ شعرِ اللِّحيةِ»[(4)].

فاللِّحية إذن من الحسن والجمال والبهاء

(1) «إغاثة اللهفان» (1/112).

(2) رواه مسلم (261).

(3) رواه البخاري (3549)، ومسلم (2337).

(4) رواه مسلم (2344).

الَّذي مُيِّز به الرِّجال عن النِّساء، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70].

ومن هذا التَّكريم خلقُه لهم على أكمل الهيئات وأحسن الصُّور.

وقيل: الرِّجال باللِّحى والنِّساء بالذَّوائب[5].

قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: 64]، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين].

وعليه؛ فيكون حلقُها تشويها لهذا الحسن، وتشبُّهًا بالنِّساء، وتغييرًا لخلق الله الَّذي يأمر به الشَّيطان كما قال تعالى عنه: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 119].

قال الإمام محمَّد الأمين الشَّنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: 95]:

«إنَّ إعفاء اللِّحية من السَّمت الَّذي أمرنا به في القرآن العظيم، وإنَّه كان سمت الرُّسل الكرام ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، والعجب من الَّذين مُسخت ضمائرهم، واضمحلَّ ذوقهم حتَّى صاروا يفرُّون من صفات الذُّكوريَّة، وشرف الرُّجولة إلى خنوثة الأنوثة، ويمثِّلون بوجوههم بحلق أذقانهم، ويتشبَّهون بالنِّساء حيث يحاولون القضاء على أعظم الفوارق الحسيَّة بين الذَّكر والأنثى وهو اللِّحية، وقد كان ﷺ كثَّ اللِّحية، وهو أجمل الخلق وأحسنهم صورة، والرِّجال الَّذين أخذوا كنوز كسرى وقيصر ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربها: ليس فيهم حالق»[6].

وفي حلقها موافقة ومشابهة للمجوس والمشركين، وقد أمرنا بمخالفتهم، قال النَّبيُّ ﷺ: «**جُزُّوا الشَّوارِبَ وَأَرْخُوا اللِّحَى خَالِفُوا المجوس**»[7]، وقال: «**خَالِفُوا المُشْرِكِينَ، وَفِّرُوا اللِّحى وأَحْفُوا الشَّوارب**»[8].

ويحرم حلقها عند المذاهب الأربعة وغيرهم[9].

بل نقل ابن حزم رحمه الله الإجماع على «أنَّ حلق جميع اللِّحية مُثلة لا تجوز»[10]، والمُثلة: التَّشويه.

وقول المالكيَّة في هذا صريح، قال الدُّسوقي رحمه الله:

«يحرم على الرَّجل حلق لحيته أو شاربه، ويُؤدَّب فاعل ذلك»[11].

وقال النَّفراوي رحمه الله:

«فما عليه الجند في زماننا من أمر الخدم بحلق لحاهم دون شواربهم لا شكَّ في حرمته عند جميع الأئمَّة لمخالفته لسنَّة المصطفى ﷺ

(5) «تفسير القرطبي» (10/293)، «تفسير البغوي» (5/108)، «تفسير ابن كثير» (5/97).

(6) «أضواء البيان» (4/383).

(7) رواه مسلم (260).

(8) رواه البخاري (5892)، ومسلم (259).

(9) انظر «حاشية ابن عابدين» (2/418)، «مواهب الجليل» للحطاب (1/313)، «المجموع» للنووي (1/290)، «إعانة الطالبين» للدمياطي (2/340)، «الاختيارات الفقهية» لابن تيمية (10)، «فتح الباري» لابن حجر (10/350 ـ 351).

(10) «مراتب الإجماع» (157).

(11) «حاشية الدسوقي» (1/90).

ولموافقته لفعل الأعاجم والمجوس»[12].

فمن الحُمق والجهل والسَّفه اعتبارُ وجه الحليق أحسنَ وأجملَ وأنظفَ من وجه اللِّحيانيّ.

الله يخزي الشَّيطان ويلعنه

يقول بعض النَّاس ناصحًا أخاه ـ عند الغضب مثلا ـ: «أخْزِ الشَّيطان»، فيجيب المنصوح بقوله: «الله يخزيه ويلعنه»، ومعنى أخزاه: أهانه وفضحه.

يظنُّ هذا العبد ـ إذا قال هذه الكلمة ـ أنَّه قد تغلب على الشَّيطان وانتصر عليه، وهو لا يدري أنَّها لا تزيد الشَّيطان إلاَّ فرحًا وسرورًا، وتعاظمًا وطغيانًا.

كان رجل رديف النَّبيِّ ﷺ على حمار، فعثر الحمار فقال: تعس الشَّيطان، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ تَعِسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ صَرَعْتُهُ بِقُوَّتِي، فَإِذَا قُلْتَ: بِسْمِ اللهِ تَصَاغَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ حَتَّى يَكُونَ أَصْغَرَ مِنْ ذُبَابٍ**»[13]، تعس: عثر وانكبَّ وهلك.

يقول العلاَّمة ابن القيِّم رحمه الله في بيان الألفاظ المكروهة:

«...ومثل هذا قول القائل: أخزى الله الشَّيطان وقبَّح اللهُ الشَّيطان، فإنَّ ذلك كلَّه يفرحه، ويقول علم ابن آدم أنِّي قد نلته بقوَّتي، وذلك ممَّا يعينه على إغوائه ولا يفيده شيئًا، فأرشد النَّبيُّ ﷺ من مسَّه شيءٌ من الشيَّطان أن يذكر الله تعالى ويذكر اسمه، ويستعيذ بالله منه، فإنَّ ذلك أنفع له وأغيظ للشَّيطان»[14].

إنَّ الَّذي يحفظ العبد من نزغ الشَّيطان ووسوسته، ويبعد عنه كيده وشرَّه ذكرُ الله تعالى وتلاوةُ كتابه والاستعاذةُ والاعتصامُ به، وسؤاله أن يصرف شِرْكه عنه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾**﴾ [فصلت].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

«فأمَّا شيطان الجنِّ فإنَّه لا حيلة فيه إذا وسوس إلاَّ الاستعاذة بخالقه الَّذي سلَّطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفَّه عنك وردَّ كيده»[15].

وقال تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾**﴾ [المؤمنون].

قال ابن كثير في بيان معنى: ﴿**أَن يَحْضُرُونِ**﴾:

«أي في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور ـ وذلك مطردة للشَّياطين ـ، عند الأكل والجماع والذَّبح، وغير ذلك من الأمور»[16].

(12) «الفواكه الدواني» (1554/3).

(13) رواه أحمد (59/5)، وأبو داود (4982)، وإسناده صحيح، «صحيح الترغيب» (3129).

(14) «زاد المعاد» (356/2).

(15) «تفسير القرآن العظيم» (181/7).

(16) «تفسير القرآن العظيم» (492/5).

وقال النَّبيُّ ﷺ للَّذي كان يسُبُّ صاحبه مغضَبًا قد احمرَّ وجهه: «**إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»[17]، أعوذ بالله أي: أعتصم وأمتنع وأحتمي به تعالى.

وعن عبد الرَّحمن بن خنبش رضي الله عنه قال: جاءت الشَّياطين إلى رسول الله ﷺ من الأودية وتحدَّرت عليه من الجبال، وفيهم شيطان معه شُعلة من نار، يريد أن يحرق بها رسول الله ﷺ، قال: فرُعب... وجاء جبريل عليه السلام فقال: **يا محمد! قُلْ**، قال: ما أقول؟ قال: **قُلْ**: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لاَ يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلاَّ طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَانُ، فَطَفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ وَهَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**»[18].

والأذكار النَّبويَّة وأنواع الاستعاذات الشَّرعيَّة في هذا الباب مبيَّنة ومفصَّلة في كتب السُّنَّة والأذكار، فمن حافظ وواظب عليها حفظه الله تعالى وردَّ عنه كيد عدوِّه.

حكي عن بعض السَّلف أنَّه قال لتلميذه: ما تصنع بالشَّيطان إذا سوَّل لك الخطايا؟ قال أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: هذا يطول، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأردُّه جهدي، قال: هذا يطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفَّه عنك[19].

ثمَّ إنَّ قول العبد: «أخزى الله الشَّيطان» من السَّبِّ الَّذي نهى عنه النَّبيُّ ﷺ لكونه لا يدفع شرًّا ولا يجلب نصرًا وإنَّما يزيد الشَّيطان تعاظمًا وكيدًا، قال ﷺ: «**لاَ تَسُبُّوا الشَّيْطَانَ فَإِنَّهُ يَتَغَيَّظُ، وَلَكِنْ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَرِّهِ**»[20].

فسبُّه غفلةٌ عمَّا يطرده ويُذِلُّه ويَقهرُه، وهو ذكر الله والاستعاذة من شرِّه، ومثلُ سابِّ الشَّيطان مثلُ رجل واجهه عدوُّه بالسِّلاح والضَّرب والتَّقتيل، وهو مشتغل بسبِّه وشتمه، لا يزيد على ذلك.

أمَّا لعن الشَّيطان:

فهو ملعون، وقد حقَّت عليه اللَّعنة إلى يوم الدِّين، سواء أُلعن أم لم يُلعن، والنُّصوص جاءت آمرة بذكر الله والاستعاذة من شرِّه، مرشدة لأدعية وأذكار تطردُه وتُبطل كيده.

لكن ثبت في «صحيح مسلم» (542) عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ، فسمعناه يقول: «**أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ**»، ثمَّ قال: «**أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ**» ثلاثًا، فسألوه عن ذلك، فقال: «**إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيس جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ...**».

(17) رواه البخاري (6115)، ومسلم (2610).

(18) رواه أحمد (3/419)، وإسناده صحيح. «الصحيحة» (2995).

(19) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (35).

(20) أخرجه تمام الرازي في «فوائده» (1137)، وإسناده صحيح. «الصحيحة» (2422).



فهذا يفيد أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لعن إبليس.

وطريقة الجمع والتَّوفيق بين هذه النُّصوص أن يقال:

يجوز لعن الشَّيطان عند تعرُّضه للإنسان ـ مثل حالة إخراجه من بدن المصروع ـ مع الاستعاذة بالله من شرِّه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ جمع بينهما، على أن لا يتَّخذ ذلك عادةً وديدنًا.

جاء في «فتاوى اللَّجنة الدَّائمة» (70/26):

«يجوز للإنسان أن يلعن الشَّيطان إذا تعرَّض له ليضرَّه أو جاهده ووسوس له ليفتنه عن طاعة الله، لكن لا يترك التَّعوُّذ منه بالله، والإكثار من ذكر الله وقول بسم الله ونحو ذلك من الأذكار والأدعية المشروعة ليتحصَّن المسلم بالله من شرِّه، وعملاً بالآيات والأحاديث السَّابقة، وينبغي للإنسان أن لا يجعل لعن الشَّيطان ديدنه بدون سبب، اقتداءً برسول الله ﷺ».



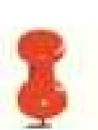
* * *

والله الهادي إلى الصِّراط المستقيم، وصلَّى الله وسلم وبارك على عبده ونبيِّه محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذه قصيدة بائية

وصلتنا عن طريق البريد الإلكتروني من شاب اسمه صدام زميت، وهو طالب في مرحلة التعليم الثانوي، من ولاية برج بوعريرج، ارتأينا نشرها وإطلاع القرّاء عليها تشجيعا منّا لهذا القلم الواعد

ومجلَّةٍ مِلْءُ الصَّلاح سُطُورُهَا	فِي حُلَّةٍ مَرْمُوقَةِ الأَثْوَابِ
جَادتْ بها أَيْدِي الكِرَامِ وكُلُّهُمْ	أَهْدُوا الكَرِيمَةَ خَالِصَ الأَلْبَابِ
وسَلِ الصَّحائف مَنْ تكونُ فهذِهِ	لَمجلَّةٌ تَعْلُو لدى الأصحاب
أَوْ عَايِنِ الأَوْرَاقَ مِنْ أَتْرَابِهَا	تَلْقَى الجَوَابَ بِعِلَّةِ الأَترابِ
سَتَقُولُ حِينَ تُرَاجِعُ الطَّيَّ الأُلَى:	هَذِي مجلَّةُ أَفْحُلِ الكُتَّاب
هَذِي يَرَاعُ المُصلحين وإنَّهَا	مِنْهُمْ بِمَنزِلَةٍ مِنَ الأَعْصَابِ
أُنظُرْ فَحَيْثُ ترى الصَّحائفَ كلَّها	ثَمَّ الصَّحيفةُ جَزْلَةُ الإِسْهَاب
فكأنَّهَا رَكْبُ النَّجاةِ وإنَّها	للعالمين مطيَّةُ الرُّكَّابِ
وَسِعَتْ سَمَاءَ العِلمِ مِنْهَا صَفْحَةٌ	وَغَدَتْ لنا مفتوحةَ الأبوَابِ
وكأنَّها رَوْضٌ عَلَى أَزْهَارِهِ	قَطْرُ النَّدَى يُوحِي إلى الإِعْجَاب
أَكْرِمْ بها مِنْ خيرِ صُحْفٍ جُمِّعَتْ	مِن خَيْرِ نَسَبٍ خَيِّرِ الأَصْلاَب
فَ"اقْرَأْ" كَمَا قَالَ الإلهُ مُدَاوِمًا	لا تَقْطَعَنَّ لأَتْفَهِ الأَسْبَاب
لا تنتقِد نَقْطَ الحُرُوفِ وغَلْطَهَا	هَذَا لَعَمْرِي غَايَةُ الإِخْرَابِ
لا تُشْرِبَنْ خَطَأَ المجَلَّةِ فَضْلَهَا	بَلْ أَصْلِحَنْ فَالشَّرُّ فِي الإِشْرَاب
يا قَارِئاً هَذِي مجلَّةُ مُصلِحٍ	ما كَانَ ضَرَّكَ عَثْرَةُ الإِعْرَاب
كلُّ ابنِ آدمَ فِي الوَرَى ذُو غَلْطَةٍ	والعَيْبُ فِي الطَّعَنَانِ والإِطْنَاب
دَامَتْ لنا هذي المجلةُ إنَّهَا	نُورٌ على نُورٍ مَدَى الأَحْقَابِ



الرَّاحة في الجنَّة

عن محمَّد بن حسنويه قال: حضرت أبا عبد الله أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ وجاءه رجلٌ من أهل خُراسان فقال: يا أبا عبد الله! قصدتك من خراسان أسألك عن مسألة؛ قال: له سَلْ؛ قال: متى يجد العبد طعم الرَّاحة؟

قال: «عند أوَّل قدم يضعها في الجنَّة».

[«طبقات الحنابلة» (1/291)]



الرَّاحة ثمرة الورع

قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أصلُ العلم التَّثبيتُ، وثمرتُه السَّلامة؛ وأصلُ الورع القناعة، وثمرتُه الرَّاحة؛ وأصلُ الصَّبر الحَزم، وثمرتُه الظَّفر؛ وأصلُ العمَل التَّوفيقُ، وثمرتُه النُّجح، وغاية كلِّ أمر الصِّدق».

[«سير أعلام النبلاء» (10/40ـ41)]



من رافق الرَّاحة فارق الرَّاحة

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أجمع عقلاء كلِّ أمَّة على أنَّ النَّعيم لا يُدرَك بالنَّعيم، وأنَّ مَنْ رافق الرَّاحة فارق الرَّاحة وحصل على المشقَّة وقت الرَّاحة في دار الرَّاحة؛ فبقدر التَّعب تكون الرَّاحة».

[«مدارج السالكين» (2/166)]



عنوان الشَّرف

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والصِّدق يهدي إلى كلِّ برٍّ وخير، كما أنَّ الكذب يهدي إلى كلِّ شرٍّ وفجور، والصَّادق حبيبٌ إلى الله، حبيبٌ إلى عباد الله، معتبر في شرف دينه ودنياه، بل عنوانُ الشَّرف والاعتبار وعلوِّ المنزلة الصِّدقُ».

[«فتح الرحيم الملك العلام» (ص111)]

درر من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ

۞ «ليس لأحد أن يحمل كلام أحد من النَّاس إلاَّ على ما عرف أنَّه أراده، لا على ما يحتمله ذلك اللَّفظ في كلام كلِّ أحد».

[«مجموع الفتاوى» (36/7)]

۞ «إذا كنتَ غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا مريد لها كما ينبغي، فغيرك من النَّاس أولى أن لا يكون عالِماً بمصلحتك، ولا قادرًا عليها، ولا مريدًا لها».

[«مجموع الفتاوى» (33/1)]

۞ «شيطان الجنِّ إذا غلب وسوس، وشيطان الإنس إذا غلب كذب».

[«مجموع الفتاوى» (608/22)]

۞ «النَّاس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغضَ بعضهم بعضًا».

[«مجموع الفتاوى» (128/15)]

۞ «من تكلَّم في الدِّين بلا علم كان كاذبًا، وإن كان لا يتعمَّدُ الكذب».

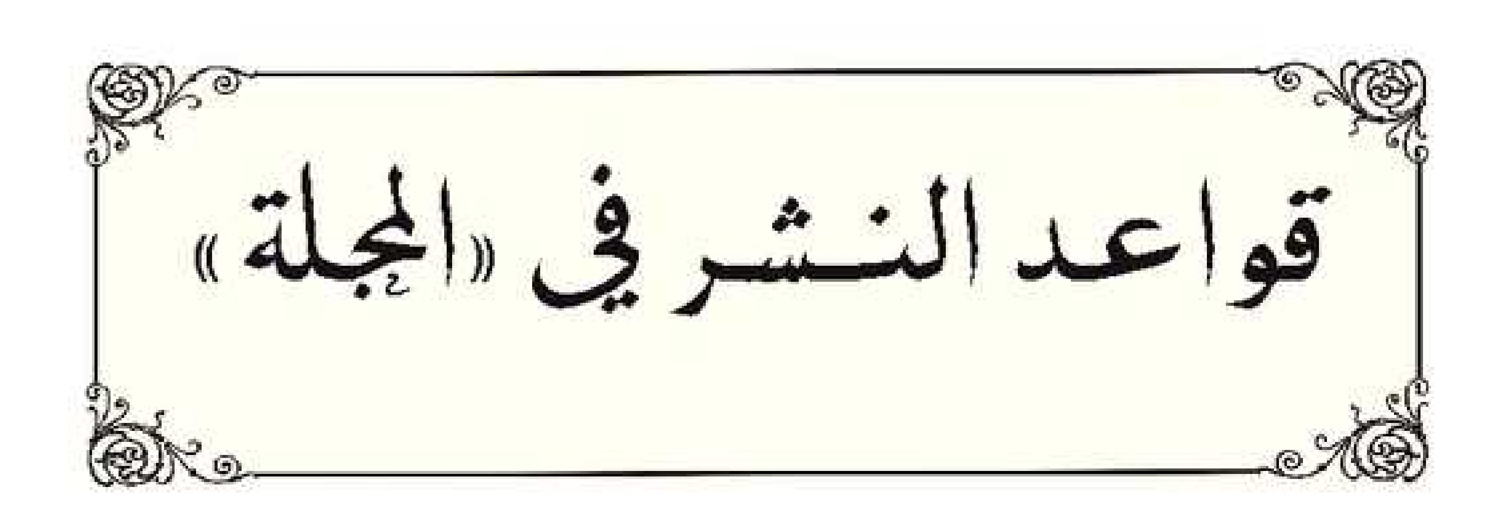
[«مجموع الفتاوى» (449/10)]

۞ «ليس كلّ من فقهه في الدِّين قد أراد به خيرًا، بل لابدَّ مع الفقه في الدِّين من العمل به».

[«الصَّفدية» (266/2)]

۞ «التَّوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهمُّ من التَّوبة من فعل السَّيِّئات المنهيِّ عنها».

[«جامع الرسائل» (228/1)]



قواعد النشر في «المجلة»

1 ـ أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.

2 ـ أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.

3 ـ أن يُحرَّر المقال بأسلوبٍ يحقق الغرض، ولغةٍ بعيدة عن التكلف والتعقيد.

4 ـ الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.

5 ـ أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.

6 ـ ألا يزيد المقالُ على خمس صفحات.

7 ـ أن يَذكر صاحبُ المقال اسمَه الكامل وعنوانَه ورقمَ هاتفه، ودرجتَه العلمية إن وُجِدَت.

8 ـ المقالاتُ أو البحوثُ التي لا تُنشر لا تُرَدُّ لأصحابها.